شتاء وسط الجليد

جول فيرن

شتاء وسط الجليد

تأليف
جول فيرن

ترجمة
صفية مختار

مراجعة
هبة عبد العزيز غانم

هنـــداوي

شتاء وسط الجليد

A Winter amid the Ice

جول فيرن

Jules Verne

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي سي آي سي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره،
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٨ ١٤٧٨ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة هنداوي سي آي سي.
يُمنَع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، ومن ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2018 Hindawi Foundation C.I.C.
A Winter amid the Ice/Jules Verne; this work is in the public domain.

المحتويات

١- الراية السوداء	٧
٢- مشروع جون كورنبوت	١٣
٣- شعاع أمل	١٩
٤- في الممرات	٢٣
٥- جزيرة ليفربول	٢٧
٦- زلزال جليدي	٣١
٧- الاستقرار لقضاء الشتاء	٣٧
٨- خطة البحث	٤١
٩- المنزل الجليدي	٤٥
١٠- مدفونون أحياء	٤٩
١١- سحابة من الدخان	٥٥
١٢- العودة إلى السفينة	٥٩
١٣- الغريمان	٦٣
١٤- الكرب	٦٧
١٥- الدببة البيضاء	٧١
١٦- الخاتمة	٧٧

الفصل الأول

الراية السوداء

استيقظ كاهن كنيسة دنكيرك القديمة في الساعة الخامسة من اليوم الثاني عشر من مايو في أحد أعوام القرن التاسع عشر ليؤدِّي كعادته قداسًا بسيطًا دون جوقة مرتلين لصالح بعض الآثمين التائبين.

كان الكاهن مرتديًا ملابسَ الكهنةِ الرسميةَ وعلى وشْك التوجُّه إلى المذبَح عندما دخل رجلٌ غرفة المقدسات فرِحًا وخائفًا في الوقت نفسه. كان بحَّارًا يبلغ من العمر ستين عامًا تقريبًا، لكنه كان لا يزال مفعمًا بالحيوية والقوة، وتبدو عليه الصراحة والأمانة.

قال: «سيدي الكاهن، تمهَّل لحظةً من فضلك.»

فسأله الكاهن: «ماذا تريد في هذا الصباح الباكر يا جون كورنبوت؟»

«ماذا أريد؟ أريد أن أعانقك في واقع الأمر!»

«حسنًا، بعد القداس الذي ستحضره ...»

أجاب البحَّار العجوز وهو يضحك: «القداس؟ أتظن أنك ستقول القداس الآن، وأنني سأدعك تفعل ذلك؟»

فسأله الكاهن: «ولماذا لا أقوله؟ أفصِحْ عن قصدك؛ فالجرس الثالث قد دقَّ ...»

ردَّ جون كورنبوت: «سواء أدقَّ أم لم يدق، فإنه سوف يدق اليوم مراتٍ كثيرة يا سيدي الكاهن؛ لأنك وعدتني أن تبارك بيديك زواجَ ابني لويس من ابنة أختي ماري!»

فقال الكاهن فرِحًا: «لقد وصل إذًا.»

فأجاب كورنبوت وهو يفرك يديه: «تقريبًا وصل، لقد تلقَّت سفينتنا إشارةً من خفر السواحل عند شروق الشمس، سفينتنا التي سمَّيتَها بنفسك اسمًا جميلًا هو «جون أردي»!»

قال الكاهن وهو يخلع حُلَّة القداس والشال: «أهنئك من كل قلبي يا كورنبوت. أنا أتذكَّر اتفاقنا. سيأخذ كاهنٌ آخَر مكاني، وأنا سأضع نفسي تحت أمرك استعدادًا لوصول ابنك العزيز.»

أجاب البحَّار: «وأعدك ألا يجعلك تصوم طويلًا. لقد نشرتَ بالفعل إعلانات الزواج، وسيكون عليك تطهيره من الخطايا التي ربما يكون قد ارتكبها بين السماء والماء في المحيط الشمالي. لقد خطرت لي فكرة جيدة تمثَّلت في أن أجعل الاحتفال بالزواج في يوم وصول ابني لويس، بحيث يغادر السفينة متوجهًا إلى الكنيسة مباشرةً.»

«اذهب إذًا يا كورنبوت وجهِّز كلَّ شيء.»

«سأنطلق يا سيدي الكاهن. طاب صباحك!»

أسرع البحَّار بخطوات عَجِلة إلى منزله الذي يفتخر به كثيرًا، ذلك المنزل الواقع على رصيف الميناء الذي يمكن من عنده رؤية المحيط الشمالي.

كان كورنبوت قد جمع أثناء حياته المهنية مبلغًا محترمًا؛ فبعد أن أمضى فترة طويلة في قيادة سفن أحد مُلَّاك السفن الأثرياء في لو هافر، استقر في بلدته الأم؛ حيث أمر ببناء السفينة «جون أردي» على نفقته الخاصة. وقامت السفينة بالعديد من الرحلات البحرية الناجحة في الشمال، ولطالما وجدت صفقات بيع جيدة لحمولتها من الخشب والحديد والقار. وبعد ذلك تخلَّى جون كورنبوت عن قيادة السفينة وسلَّمها لابنه لويس، ذلك البحَّار الماهر صاحب الثلاثين ربيعًا الذي يعتبره كلُّ قباطين السواحل البحَّار الأكثر جرأة في دنكيرك.

كان لويس كورنبوت متعلقًا تعلُّقًا شديدًا بماري ابنة عمته التي كانت تجد غيابه طويلًا جدًّا ومرهقًا. كانت ماري فتاة فلمنكية جميلة في العشرين من عمرها، يجري في عروقها بعض الدماء الهولندية. وعندما كانت أمُّها على فراش الموت أوصت أخاها جون كورنبوت بالعناية بالصغيرة. وأحب البحَّار العجوز الشجاع الطفلةَ كما لو كانت ابنته، ورأى في ارتباطها المقترح بابنه لويس مصدرًا لسعادة حقيقية ودائمة.

كان وصول السفينة، التي أصبحت قبالة الساحل بالفعل، إيذانًا بإتمام صفقة عمل مهمة يتوقع جون كورنبوت من ورائها أرباحًا كبيرة؛ فالسفينة «جون أردي» التي غادرت منذ ثلاثة أشهر قد عادت أخيرًا من بودو على الساحل الغربي للنرويج، وقامت برحلة بحرية سريعة من هناك.

عند العودة إلى المنزل، وجد جون كورنبوت المنزل كله في حالة نشاط. وكانت ماري ذات الوجه المشرق قد ارتدت فستان الزفاف.

وقالت: «أتمنَّى ألا تصل السفينة قبل أن نجهز!»

فأجاب جون كورنبوت: «أسرعي يا صغيرتي؛ فالرياح شمالية والسفينة تبحر سريعًا، كما تعلمين، عندما تطلق لنفسها العِنان.»

سألته ماري: «هل أخبرت أصدقاءنا؟»

«نعم أخبرتهم.»

«وكاتب العدل والكاهن؟»

«اطمئني، أنت فقط مَن يبقينا منتظرين.»

وفي تلك اللحظة دخل كليربوه الصديق القديم.

وصاح قائلًا: «حسنًا أيها العجوز كورنبوت. يا له من حظ! لقد وصلت سفينتك في الوقت نفسه الذي قررت فيه الحكومة التعاقدَ على كمية كبيرة من الخشب للبحرية!»

فردَّ جون كورنبوت: «وماذا يعني لي ذلك؟ وما شأني أنا بالحكومة؟»

قالت ماري: «أنت ترى يا سيد كليربوه أننا لا يشغلنا سوى أمر واحد، ألا وهو عودة لويس.»

فأجاب كليربوه: «أنا لا أجادل في ذلك، لكن ... باختصار ... صفقة الخشب هذه ...»

فقاطع جون كورنبوت التاجر مصافحًا يده كما لو كان سيسحقها قائلًا: «وأنت ستحضر الزفاف.»

«صفقة الخشب ...»

«ومع كل أصدقائنا العاملين في الأرض والعاملين في البحر يا كليربوه. لقد أعلمت الجميع، وسأدعو كل طاقم السفينة.»

تساءلت ماري: «وهل سنذهب وننتظرهم على رصيف الميناء؟»

فأجاب جون كورنبوت: «بالطبع سنذهب، سنسير في صف مثاني تتقدمنا آلات الكمان.»

سرعان ما وصل الضيوف الذين دعاهم جون كورنبوت، ولم يتخلف أي منهم عن الحضور رغم أن الوقت كان مبكرًا جدًّا. وباركوا جميعًا للبحار العجوز الأمين الذي يحبونه. في الوقت نفسه، غيَّرت ماري التي كانت جاثية على ركبتيها صلواتها إلى صلاة شكر، وسرعان ما عادت لرفقة الضيوف متأنقةً ورائعة؛ وقبَّلتها جميع النساء، بينما صافحها الرجال بحماسة، ثم أعطى جون كورنبوت إشارة المغادرة.

كان من الغريب رؤية هذا الحشد المبتهج يشق طريقه في الغروب صوب البحر. وكان نبأ وصول السفينة قد انتشر في الميناء، وأطل الكثير من الرءوس المرتدية قبَّعات النوم

من النوافذ ومن الأبواب شبه المفتوحة، وقدَّم الناس المجاملات الصادقة وإشارات التحية اللطيفة من كل حَدَب وصوب.

وصل الحشد إلى رصيف الميناء وسط حفلة من المديح والمباركات. كان الطقس رائعًا، وبدت الشمس كما لو كانت مشارِكةً في الاحتفال، وهبَّت رياح شمالية كوَّنت زَبدًا في الأمواج، وشقَّت بعض قوارب الصيد التي فردت قلوعها استعدادًا لمغادرة الميناء عباب البحر بسرعتها بين حواجز الأمواج.

كان الرصيفان البحريان في دنكيرك يمتدان إلى مسافة بعيدة في البحر. وشغل حفل الزفاف كامل نطاق الرصيف الشمالي، وسرعان ما وصل إلى منزل صغير موجود على طرف الرصيف يسكنه مدير الميناء. اشتدت الرياح، وسارت السفينة «جون أردي» بسرعة ناشرةً أشرعتها السفلية والخلفية والأرجوحية والوسطى والعلوية. كانت البهجة تعم بوضوح سطح السفينة كما هي الحال على الأرض. وكان جون كورنبوت الذي أمسك بمنظار في يده يرد في ابتهاج على أسئلة أصدقائه.

صاح قائلًا: «انظروا إلى سفينتي! إنها نظيفة وثابتة كما لو كانت أشرعتها قد جُهِّزت في دنكيرك! لم يُصبْها أدنى ضرر، ولا ينقصها حبل واحد!»

سأله أحدهم: «هل ترى ابنك القبطان؟»

«لا، ليس بعدُ. إنه مشغول في عمله!»

سأل كليربوه: «لماذا لم يرفع عَلَمه؟»

«لا أعلم يا صديقي القديم. لا شك أن عنده سببًا لذلك.»

قالت ماري وهي تأخذ المنظار: «أتأذن لي بمنظارك يا عمي؟» وأردفت: «أريد أن أكون أول مَن يراه.»

«لكنه ابني أيضًا يا آنسة!»

فأجابته الفتاة ضاحكةً: «لقد كان ابنك طوال ثلاثين عامًا، وأصبح خطيبي منذ عامين فقط!»

أصبحت السفينة «جون أردي» واضحة الآن بالكامل. وكان الطاقم جاهزًا لإلقاء المرساة، وقصرت الأشرعة السفلية، وأصبح من الممكن التعرُّف على البحارة الموجودين بين الأشرعة والصواري. ولم تتمكَّن ماري أو جون كورنبوت بعدُ من التلويح بالأيدي إلى قبطان السفينة.

صاح كليربوه: «حسنًا، ها هو نائب الربان أندريه فازلينج.»

وقال آخَر: «وها هو النجَّار فيديل ميزون.»

وقال ثالث: «وصديقنا بينيلون.» محيِّيًا البحَّار المذكور.

كانت السفينة «جون أردي» على مسافة تعادل طول ثلاثة أحبال من الشاطئ عندما رفعت راية سوداء على صاري السفينة. كان ثمة حالة حداد على متن السفينة!

استحوذت رجفة الرعب على الحشد وعلى قلب الفتاة الصغيرة.

وتأرجحت السفينةُ في حزن نحو الميناء، وخيَّم الصمت الفاتر على متن السفينة، وسرعان ما جاوزت نهاية الرصيف البحري. وأسرعت ماري وجون كورنبوت وكل الأصدقاء إلى المكان الذي رست عنده، وسرعان ما وجدوا أنفسهم على متنها.

لم يستطِع جون كورنبوت إلا أن يتفوَّه بكلمة واحدة هي: «ولدي!»

فأشار البحَّارة ورءوسهم مكشوفة إلى راية الحِدَاد.

أطلقت ماري صرخة أسى، وسقطت بين ذراعي العجوز كورنبوت.

لقد أعاد أندريه فازلينج السفينة «جون أردي»، لكن لويس كورنبوت، خطيب ماري، لم يكن على متنها.

الفصل الثاني

مشروع جون كورنبوت

بمجرد أن غادرت السفينةَ الفتاةُ الشابة، التي عُهدت رعايتها إلى الأصدقاء المتعاطِفين، أخبر نائب الربان أندريه فازلينج جون كورنبوت بالحادث المفجع الذي حرَمه من ابنه كما هو مدوَّن في يوميات السفينة:

«في ذروة إعصار الدردور البحري يوم ٢٦ أبريل كانت السفينة تتجه صوب الرأس البحري بسبب الطقس السيئ والرياح الجنوبية الغربية، وحينها تلقَّت إشارات استغاثة من مركب شراعي يُبحِر في اتجاه الرياح. وكان المركب الشراعي الذي فقد شراعه الخلفي يندفع نحو الإعصار وصواريه خالية من الأشرعة. وعندما رأى القبطان لويس كورنبوت هذا المركب يُسرع نحو الخطر الوشيك قرَّر الصعود على متنه، وأنزل القارب الطويل إلى البحر على الرغم من اعتراض الطاقم، ورَكِبَه مع البحَّار كورتواه وقائد الدَّفة بيير نوكيه، وراقبهم الطاقم حتى اختفوا في الضباب. حلَّ الليل، وأصبح البحر أكثر اضطرابًا. وعندما سحبت التيارات في هذه المنطقة السفينةَ «جون أردي» أصبحت السفينة عرضةً لأن يبتلعها الإعصار، واضطرت إلى السير أمام الرياح. وظلت تحوم لعدة أيام بالقرب من مكان وقوع الكارثة، لكن سُدًى. ولم يظهر مجددًا القارب الطويل والقارب الشراعي والقبطان لويس والبحَّاران. جمع أندريه فازلينج الطاقم وتولَّى قيادة السفينة وأبحر إلى دنكيرك.»

بعد قراءة هذا السَّرد الجاف بكى جون كورنبوت فترةً طويلة؛ وكان عزاؤه الوحيد هو فكرة أن ابنه مات في محاولة إنقاذ حياة إخوانه في الإنسانية. ثم غادر الأب المكلوم السفينة التي كان منظرها يصيبه بالبؤس وعاد إلى منزله الموحش.

سرعان ما انتشرت الأخبار المشئومة في دنكيرك، وجاء الكثير من أصدقاء البحَّار العجوز ليعربوا عن مواساتهم الحارة والخالصة. ثم روى بحَّارة السفينة «جون أردي»

الواقعة بمزيدٍ من التفصيل، وأخبر أندريه فازلينج ماري بمزيد من الإسهاب عن وفاء خطيبها حتى النهاية.

وعندما كفَّ جون كورنبوت عن البكاء فكَّر في الأمر، وفي اليوم التالي لوصول السفينة قال لأندريه الذي جاء لرؤيته:

«هل أنت متأكد تمامًا يا أندريه من أن ابني فارق الحياة؟»

فقال الرفيق: «للأسف، نعم يا سيد جون.»

«وهل بحثت عنه بكل الطرق الممكنة؟»

«كلها يا سيد كورنبوت، لكن للأسف وبكل تأكيد، ابتلعه الإعصار هو والبحَّارَيْن.»

«أتود يا أندريه أن تظل نائب ربان السفينة؟»

«هذا يعتمد على مَن سيكون القبطان يا سيد كورنبوت.»

فأجاب البحَّار العجوز: «سأكون القبطان، وأُفْرِغ حمولة السفينة بسرعة، وأجمع طاقمي وأُبْحِر بحثًا عن ابني.»

قال أندريه بعناد: «ابنك ميت!»

فردَّ جون كورنبوت في حدة: «من الممكن يا أندريه، لكن من الممكن أيضًا أن يكون قد أنقذ نفسه، سأفتش كلَّ موانئ النرويج التي ربما سيق إليها، وعندما أقتنع تمامًا بأنني لن أراه ثانيةً سوف أعود إلى هنا لأموت!»

وعندما رأى أندريه فازلينج أن هذا القرار لا رجعةَ فيه لم يتمادَ في الإصرار، بل رحلَ.

وعلى الفور أخبر جون كورنبوت ابنة أخته بِنيَّته، ورأى بصيصَ أملٍ يتلألأ وسط دموعها. لم يكن يبدو للفتاة الشابة أن موت حبيبها محلُّ شك، لكن بمجرد أن دخل هذا الأمل الجديد قلْبَها، تبنَّته دون تحفُّظٍ.

قرَّر البحَّار العجوز أن تعود السفينة «جون أردي» للإبحار دون تأخير. ولم تكن السفينة المتينة الصنع في حاجة إلى إصلاحات. وأعلم جون كورنبوت البحَّارةَ أنهم لو أرادوا العودة إلى الإبحار فإنه لن يغيِّر في الطاقم؛ فهو فقط مَن حلَّ محلَّ ابنهِ في قيادة السفينة. ولم يَعزِف أيٌّ من رفاق لويس كورنبوت عن إجابة دعوته، وكان بينهم بحَّارة أشداء مثل ألان توركيت، والنجَّار فيديل ميزون، وبينيلون البريتاني الذي حلَّ محلَّ بيير نوكيه في قيادة الدفَّة، وكان يوجد بحَّارة شجعان ومتمرسون مثل جرادلان وأوبيك وجيرفيك.

عرض جون كورنبوت على أندريه فازلينج وظيفته القديمة على متن السفينة مرةً أخرى. لقد كان نائب الربان ضابطًا متمكنًا أثبت مهارته في العودة بالسفينة «جون أردي»

إلى الميناء، ورغم ذلك، ولسبب لا يمكن قوله، اختلق أندريه بعض الصعوبات وطلب وقتًا للتفكير.

قال كورنبوت: «كما تريد يا أندريه فازلينج، تذكَّر فقط أنه في حالة موافقتك سيُرحَّب بك بيننا.»

كان بينيلون البريتاني بحَّارًا مخلصًا وزميلًا لجون كورنبوت في رحلاته البحرية فترةً طويلة. وفي الماضي، كانت ماري الصغيرة تقضي ليالي الشتاء الطويلة في حِضن قائد الدفَّة بينيلون عندما يكون على الشاطئ؛ لقد كانت تجمعه بها صداقة أبوية، وكانت تحبه حبَّ الابنة لوالدها. أسرع بينيلون في تجهيز السفينة بكل طاقته؛ لاعتقاده أن أندريه فازلينج لم يبذل كلَّ الجهود الممكنة لإنقاذ المفقودين، على الرغم من أنه قد يكون معذورًا بسبب المسئولية التي أثقلت كاهله بصفته قائدَ السفينة.

خلال أسبوع كانت السفينة «جون أردي» جاهزة للإبحار، وبدلًا من أن تكون محملة بالبضائع جُهِّزَت تمامًا باللحم المملَّح والبسكويت وبراميل الدقيق والبطاطس ولحم الخنزير والخمر والبراندي والبن والشاي والتبغ.

حُدِّد يوم ٢٢ مايو موعدًا للمغادرة. وفي المساء السابق ليوم المغادرة، جاء أندريه فازلينج الذي لم يكن قد أجاب بعدُ على طلب جون كورنبوت إلى منزل الأخير، ولم يكن قد حسم قراره بعدُ، ولا يعرف أي مسار يجب أن يسلكه.

لم يكن جون في المنزل على الرغم من أن الباب كان مفتوحًا. سار أندريه في الممر المجاور لغرفة ماري، وتناهى إلى سمعه حوارٌ مثيرٌ، واستمع بانتباه وتعرَّف على صوت بينيلون وماري.

كان الحوار دائرًا بلا شك منذ فترة؛ لأن الشابة كانت تعارض بقوة ما قاله البحَّار البريتاني؛ حيث تساءلت:

«كم عمر خالي كورنبوت؟»

فأجابها بينيلون: «في حدود الستين.»

«حسنًا، ألن يواجه الخطر ليعثر على ابنه؟»

أجاب البحَّار: «القبطان ما زال رجلًا قويًّا، وجسمه مثل شجرة البلوط، وعضلاته صلبة مثل الصاري المشوق؛ ومن ثَمَّ فأنا لا أخشى ذهابه إلى البحر مرةً أخرى!»

قالت ماري: «عزيزي بينيلون، يصبح المرء قويًّا عندما يحب! وأنا واثقة تمامًا من مساعدة السماء، أنت تفهمني وسوف تساعدني.»

فقال بينيلون: «كلا! مستحيل يا ماري، مَن يعلم إن كنَّا سننجرف أم لا، أو ما الذي سنعانيه؟ فكم رأيت من رجال أقوياء فقدوا حياتهم في هذه البِحَار!»

أجابته الفتاة الشابة: «إذا رفضتني يا بينيلون فسأعتقد أنك لم تَعُد تحبني.»

وفهِمَ أندريه فازلينج عزمَ الفتاة الشابة، وفكَّر لحظةً، وحدَّد ما سيفعله.

قال وهو يتقدَّم صوب البحَّار العجوزِ الذي دخل الآن: «جون كورنبوت، سآتي معك؛ لقد اختفى سبب تردُّدي، ويمكنك الاعتماد على ولائي.»

أجابه جون كورنبوت وهو يمسك بيده: «لم أشكَّ بك مطلقًا.» واستطرد مناديًا بصوت عالٍ: «ابنتي ماري!»

فأتت ماري وبينيلون.

قال جون: «سنبحر غدًا عند مطلع الفجر مع المد المنسحب. عزيزتي ماري هذا آخر مساء سنقضيه معًا.»

صاحت ماري وهي تلقي بنفسها في حِضنه: «خالي!»

«سأعيد لك حبيبك يا ماري بمعونة الرب!»

وأضاف فازلينج: «نعم سنجد لويس.»

وسأل بينيلون بسرعة: «أذاهب معنا إذًا؟»

أجابه جون: «نعم يا بينيلون، سيكون أندريه فازلينج نائب القبطان.»

قال البريتاني بنبرة غريبة: «آه، آه!»

«ونصيحته ستكون مفيدة لنا؛ لأنه متمكِّن ومِقدام.»

قال أندريه: «وأنت أيها القبطان ستكون لنا مثالًا يُحتذى؛ لأنك تتمتع بالقوة قدر ما تتمتع بالخبرة.»

قال جون: «حسنًا أيها الأصدقاء، وداعًا حتى الغد، اصعدوا إلى متن السفينة وقوموا بالتجهيزات النهائية. وداعًا يا أندريه، وداعًا يا بينيلون.»

خرج نائب الربان والبحَّار معًا، وظل جون وماري بمفردهما، وذرفت الكثير من الدموع في هذه الليلة الحزينة. ولما رأى جون كورنبوت حالة ماري البائسة، قرَّر أن يعفيها من ألم الفراق، فغادر المنزل في الصباح الباكر دون علمها؛ ولذلك أعطاها قُبْلة أخيرة في ذلك المساء. وفي الثالثة من صباح اليوم التالي جهَّز نفسه وغادر المنزل.

جذبت مغادرة السفينة كلَّ أصدقاء البحَّار العجوز للرصيف البحري. أما الكاهن الذي كان من المفترض أن يبارك ارتباط ماري ولويس فقد جاء ليبارك السفينة للمرة الأخيرة. تصافحوا جميعًا بقوة في صمتٍ، وصعد جون إلى متن السفينة.

كان جميع أفراد الطاقم على متن السفينة. وأعطى أندريه فازلينج تعليماته الأخيرة، وفُردت الأشرعة وانطلقت السفينة بسرعة في ظل الرياح الشمالية الغربية القوية، ووقف الكاهن وسط المشاهدين الراكعين وسلَّم السفينة إلى يد الرب.

إلى أين تذهب هذه السفينة؟ إنها تتبع طريقًا محفوفًا بالأخطار ضاع فيه الكثير من المفقودين! إنها بلا وجهة محددة، ولا بد أن تتوقَّع شتى الأخطار، وأن تكون قادرة على مواجهتها دون تردد. الرب وحده يعلم أين سترسو، فليرشدها الرب!

الفصل الثالث

شعاع أمل

في ذلك الوقت من السَّنة كان الطقس مناسبًا، وقد يأمل الطاقم في الوصول إلى مكان الحادث على الفور.

حُدِّدت خطة جون كورنبوت بطبيعة الحال، واعتمد على التوقُّف في جزر فارو التي من المحتمل أن تكون الرياح الشمالية قد حملت إليها المفقودين، وفي حالة اقتناعه أن الموانئ في هذه المنطقة لم تستقبل أي ناجين فسوف يستكمل بحثه فيما وراء المحيط الشمالي، ويبحث في كل الساحل الغربي للنرويج حتى بودو، أقرب مكان لموقع الحادث، وربما يذهب لأبعد من ذلك إذا اقتضى الأمر.

على النقيض من رأي القبطان، رأى أندريه فازلينج ضرورة استكشاف ساحل أيسلندا؛ أما بنيليون فقد لاحظ أنه أثناء وقوع الكارثة كانت الريح آتيةً من الغرب، وهذا يعطي أملًا في أن البؤساء لم يندفعوا صوب هوة الإعصار، لكنه في الوقت نفسه مبرِّر لافتراض احتمالية أنهم أُلقُوا على الساحل النرويجي.

عندئذٍ قرَّروا ضرورة اتباع الساحل عن كثبٍ قدْرَ الإمكان؛ كي يتعرفوا على ما قد يظهر من آثارٍ للمفقودين.

وفي اليوم التالي لإبحار السفينة، كان جون كورنبوت يحدِّق في الخريطة مستغرقًا في التفكير عندما حطَّت على كتفه يدٌ صغيرة، وهمس في أذنه صوتٌ ناعمٌ يقول:

«تحلَّ بالشجاعة يا خالي.»

استدار جون مذهولًا، وعانقته ماري.

فقال: «ماري، ابنتي، على متن السفينة!»

«قد تذهب الزوجة أيضًا بحثًا عن زوجها عندما ينطلق الأب لإنقاذ ابنه.»

«يا لكِ من تعيسة يا ماري! كيف ستتحملين عناءنا؟! هل تعلمين أن وجودك يمكن أن يعوق البحث؟»

«لا يا خالي؛ فأنا قوية.»

«مَن يعلم إلى أين سنضطر أن نذهب يا ماري؟ انظري إلى هذه الخريطة. إننا نقترب من أماكنَ خَطِرةٍ حتى لنا نحن معشرَ البحَّارة، رغم أننا معتادون على صعوبات البحر، فما بالكِ أنتِ يا طفلتي الضعيفة؟!»

«لكنني يا خالي أنحدر من عائلة بحَّارة، وأنا معتادة على قصص القتال والعواصف، أنا معك ومع صديقي العجوز بينيلون.»

«بينيلون! أكان هو مَن أخفاكِ على متن السفينة؟»

«نعم يا خالي، لكنه فعل ذلك عندما رآني مصممة على المجيء دون مساعدته.»

فصاح جون: «بينيلون!»

فدخل بينيلون.

«من غير الممكن التراجعُ عما فعلت يا بينيلون، لكن تذكَّر أنك مسئول عن حياة ماري.»

فأجاب بينيلون: «هوِّن عليك أيها القبطان، تلك الصغيرة تمتلك القوة والشجاعة، وستكون ملاكنا الحارس، ثم إنك تعلم أيها القبطان نظريتي القائلة إن كلَّ ما يحدث في هذا العالم يجلب لنا الخير.»

وأقامت الفتاة الشابة في قمرة أعدَّها لها البحَّارة سريعًا وجعلوها مريحة قدْرَ الإمكان.

وبعد أسبوع توقَّفت السفينة «جون أردي» في جزر فارو، ولم يسفر البحث الدقيق عن شيء؛ فلم تظهر على سواحل الجزر أي سفينة أو بقايا سفينة، ولم يكن لديهم أي علم عن الحادثة أيضًا. استأنفت السفينة رحلتها في العاشر من يونيو بعد إقامة بلغت عشرة أيام، وكان البحر هادئًا والرياح مواتية، وأسرعت السفينة صوب الساحل النرويجي واستكشفته دون تحقيق نتائجَ أفضل.

قرَّر جون كورنبوت المواصلة إلى بودو لعله يعرف اسم المركب الشراعي الغارق الذي ضحَّى لويس والبحَّارة بأنفسهم من أجل إنقاذه.

وفي الثلاثين من يونيو ألقت السفينة المرساة في ذلك الميناء.

وأعطت السلطات في بودو لجون كورنبوت زجاجةً وُجدت على الشاطئ، احتوت على وثيقة كُتب فيها ما يلي:

«في السادس والعشرين من أبريل، على متن «فرويرن»، بعد أن دنا منَّا قارب السفينة «جون أردي» الطويل، سحبتنا التيارات نحو الجليد. ليتغمدنا الرب برحمته!»

كان أول ردِّ فعل لجون كورنبوت هو شكر السماء، وظن نفسه يسير على درب ابنه. كان الفرويرن مركبًا شراعيًّا نرويجيًّا لا توجد عنه أخبار، لكن من الواضح أنه سُحب إلى الشمال.

لم يكن من الممكن تضييعُ ولو يومًا واحدًا. وعلى الفور جُهِّزت السفينة «جون أردي» لمواجهة أخطار البِحَار القطبية. وفحَصَها النجَّار فيديل ميزون بعناية واطمأن أن بنيَتها الصلبة يمكن أن تقاوم صدمات الكتل الجليدية.

وحرص بينيلون، الذي عمل بالفعل في صيد الحيتان في المياه القطبية، على وضع الأغطية الصوفية والفرو، والأحذية الكثيرة المصنوعة من جلد الفقمة، والأخشاب اللازمة لصناعة الزلاجات لعبور الحقول الجليدية، على متن السفينة. وزِيدت الإمدادات وأُضيفت المشروبات الروحية والفحم؛ لأنهم من الممكن أن يضطروا في وقتٍ من الأوقات إلى قضاء الشتاء على ساحل جرينلاند. كما وفَّروا أيضًا بصعوبة بالغة وبثمن باهظ كميةً من الليمون لمنع الإسقربوط ومقاومته؛ فهو مرضٌ فظيع يفتك بالطاقم في المناطق الجليدية. وكان مخزن السفينة يعُجُّ باللحم المملَّح والبسكويت والبراندي وغيرها؛ لأن المطبخ لم يَعُد كافيًا، وبالإضافة إلى ذلك أمدُّوا أنفسهم أيضًا بكمية كبيرة من «البيميكان»، وهو لحم جاموس مفروم ومجفَّف يُحضره الهنود الحمر، ويحتوي على قدْرٍ كبير من المغذيات المركَّزة في حجمٍ صغير.

وبأمر من قبطان السفينة وُضع بعضُ المناشير على متن السفينة لقطع الحقول الجليدية، كما وضعوا أيضًا بلطات وأسافين للفصل بين الكتل الجليدية، وقرَّر القبطان جلب بعض الكلاب لجرِّ الزلَّاجات على ساحل جرينلاند.

اشترك الطاقم بأكمله في هذه التحضيرات، وأظهروا نشاطًا زائدًا. وأطاع البحَّارة أوبيك وجيرفيك وجرادلان أوامرَ بينيلون؛ الذي نصحهم بعدم التعوُّد على ارتداء الملابس الصوفية رغم أن درجة الحرارة في هذه المنطقة الواقعة فوق الدائرة القطبية الشمالية كانت شديدة الانخفاض.

أخذ بينيلون يراقب عن كثب كلَّ أفعال أندريه فازلينج دون أن ينبس ببنت شفة. كان الرجل هولنديَّ المولد، ولم يكن أحدٌ يعلم من أين جاء، لكنه على الأقل كان بحَّارًا

ماهرًا؛ إذ قام برحلتين بحريتين على متن السفينة «جون أردي». لم يكن لدى بينيلون ما يتهمه به بعدُ، بخلاف أنه كان يحرص على البقاء بقرب ماري باستمرار، لكنه لم يدعه يغيب عن ناظريه.

وبفضل همة الطاقم أصبحت السفينة جاهزة بحلول السادس عشر من يوليو؛ أي بعد أسبوعين من وصولها إلى بودو؛ فذلك الوقت كان الموسم المناسب لبدء استكشاف البِحَار القطبية؛ فقد بدأ ذوبان الجليد منذ شهرين، وأصبح من الممكن البحث في أقاصي الشمال. وأبحرت السفينة «جون أردي»، ووجَّهت دفَّتها صوب كيب بروستر على الساحل الشرقي لجرينلاند بالقرب من دائرة عرض ٧٠.

الفصل الرابع

في الممرات

في الثالث والعشرين من يوليو أعلن انعكاسٌ ظاهرٌ فوق سطح البحر عن ظهورِ أول جبلٍ جليدي يبدأ من مضيق ديفيز ويصل إلى المحيط. ومن هذه اللحظة أصبح مطلوبًا من البحَّارة المراقبين التحلِّي باليقظة؛ لأنه من المهم عدم الاصطدام بهذه الكتل الضخمة.

قُسِّم الطاقم إلى نوبتَي مراقبة، تكوَّنت النوبة الأولى من فيديل ميزون وجرادلان وجيرفيك؛ وتكونت الثانية من أندريه فازلينج وأوبيك وبينيلون. وكانت نوبة المراقبة تستمر ساعتين فقط؛ لأنه في تلك المناطق الباردة تقلُّ قوَّة الفرد بمقدار النصف. وعلى الرغم من أن السفينة «جون أردي» لم تكن تجاوزت دائرة عرض ٦٣ فإن الترمومتر كان قد توقَّف بالفعل عند تسع درجات مئوية تحت الصفر.

كانت الأمطار والثلوج تنهمر بغزارة. وفي أيام الصحو التي لم تكن فيها الرياح شديدة العنف، كانت ماري تمكث على سطح السفينة، واعتادت عيناها مناظرَ البِحَارِ القطبية الموحشة.

في أول أغسطس كانت ماري تسير صوب مؤخرة السفينة وهي تتحدَّث مع خالها وبينيلون وأندريه فازلينج. وكانت السفينة قد دخلت قناةً عرضها ثلاثة أميال، والكتل الجليدية المتكسرة تندفع فيها بسرعة هابطة صوب الجنوب.

وتساءلت الفتاة الشابة: «متى سنرى الأرض؟»

فأجاب جون كورنبوت: «في غضون ثلاثة أيام أو أربعة على الأكثر.»

«لكن هل سنجد هناك آثارًا جديدة للويس المسكين؟»

«ربما يا بنيتي، لكني أخشى أن نكون ما زلنا بعيدين عن نهاية رحلتنا. أخشى أن يكون قارب الفرويرن الشراعي قد انجرف إلى أقصى الشمال.»

وأضاف أندريه فازلينج: «هذا محتمل لأن العاصفة التي فرَّقت بيننا وبين القارب النرويجي استمرت ثلاثة أيام، وخلال ثلاثة أيام قد تنجرف السفينة بعيدًا عندما تفقد قدرتها على مقاومة الريح.»

ردَّ بينيلون: «اسمح لي أن أقول لك يا سيد فازلينج إن ذلك كان في أبريل، ولم يكن ذوبان الجليد قد بدأ في ذلك الوقت؛ لذلك لا بد أن الجليد قد أعاق تقدُّم الفرويرن.»

فقال نائب الربان: «ولا شك أنه تحطَّم إلى ألف قطعة لعجز طاقمه عن السيطرة عليه.»

فأجاب بينيلون: «لكن هذه الحقول الجليدية منحَتَها وسيلةً سهلةً للوصول إلى الأرض التي لا يمكن أن تكون قد بَعُدت عنها كثيرًا.»

فقال جون كورنبوت مقاطعًا النِّقاش الذي كان يتجدَّد يوميًّا بين نائب الربان وقائد الدفة: «لنأمل ذلك، أعتقد أننا سنرى الأرض عما قريب.»

وصاحت ماري: «ها هي! انظروا إلى تلك الجبال!»

فأجاب الخال: «لا يا ابنتي، تلك هي الجبال الجليدية التي قابلناها في بادئ الأمر، إنها ستهشمنا مثل الزجاج إذا علِقنا بينها. بينيلون وفازلينج، فلتُشرِفا على الرجال.»

لاح في الأُفُق ما يزيد عن خمسين كتلةً جليدية طافية وأخذتْ تقتربُ من السفينة أكثرَ فأكثر. وأمسك بينيلون الدَّفة وصعد جون كورنبوت على الصاري الأوسط موضحًا الطريقَ اللازمَ سلوكُه.

وقُبيل المساء كانت السفينة محاطةً بالكامل بصخور متحركةٍ ذات قوة تدميرية هائلة، ثم كان من الضروري عبورُ سلسلة الجبال هذه؛ إذ كان من الحكمة مواصلةُ التقدُّم. أُضيف إلى هذه الأخطار صعوبةٌ جديدة؛ حيث أصبح من غير الممكن تحديدُ اتجاه السفينة بدقَّة؛ نظرًا لتغيُّر مكان كل النقاط المحيطة باستمرار، ومن ثَمَّ لم توفِّر لهم منظورًا ثابتًا. سرعان ما ازداد الظلامُ بسبب الضباب، ونزلت ماري إلى قمرتها، وظل الطاقم كلُّه فوق سطح السفينة بناءً على أوامر القبطان، وكانوا مسلَّحِين بأوتاد طويلة وبلطات حديدية للحفاظ على السفينة من الاصطدام بالجليد.

سرعان ما دخلت السفينة في ممر شديد الضيق، لدرجة أن حواف عوارض الأشرعة كانت تحتك بالجبال الجليدية الهائمة، وكانت قواعد الصواري على وشْك الاصطدام. وأُجبروا أيضًا على تقصير عارضة الشراع الرئيسية كي تلمس حبال الصاري. ولحسن الحظ أن هذه الاحتياطات لم تحرم السفينة من سرعتها؛ لأن الرياح ما إن وصلت للأشرعة

العلوية، حتى اندفعت السفينة للأمام بسرعة، وبفضل بدن السفينة الرشيق تمكَّنت من المرور في هذه الأودية التي كانت تعجُّ بدوامات الأمطار، وتصطدم فيها الجبال الجليدية بعضها ببعض متصدِّعةً ومتشققة بحدة.

عاد جون كورنبوت إلى سطح السفينة، ولم تستطِع عيناه أن تخترقا الظلامَ المحيط، وأصبح من الضروري رفعُ الأشرعة العلوية؛ لأن السفينة كانت مهددة بالارتطام بالقاع، وكانت ستضيع إذا حدث ذلك.

صاح أندريه فازلينج: «رحلة ملعونة!» بين البحَّارة الذين كانوا في مقدمة السفينة يتحاشون القِطَع الجليدية البالغةَ الخطورة بخطاطيف السفينة.

وردَّ أوبيك: «في الحقيقة إذا نجونا فسنكون مدينين بشمعة جميلة إلى سيدة الجليد!»

وأضاف نائب الربان: «مَن يعلم كم عدد الجبال الطافية التي يجب أن نتجاوزها؟»

فردَّ البحَّار: «ومَن يستطيع أن يخمِّن ماذا سنجد خلفها؟»

فقال جيرفيك: «لا تُكثر الحديث أيها الثرثار، وانتبه إلى جانبك، وعندما نتجاوز تلك الجبال سيحين وقت الثرثرة، انتبه إلى خطاف السفينة!»

وفي هذه اللحظة تدحرجت سريعًا في القناة الضيقة التي كانت تمرُّ فيها السفينة قطعةٌ جليدية عملاقة، وبدا من المستحيل تفادي تلك القطعة؛ حيث سدَّت عرض القناة، ولم تستطِع السفينة التوقُّف عن الإبحار.

وسأل كورنبوت بينيلون: «هل تُمسِك ذراعَ الدَّفة؟»

«لا يا قبطان؛ فالسفينة لم تَعُد تستجيب للدَّفة.»

فصاح القبطان في الطاقم: «أيها الفتية! لا تخافوا، وأسندوا الخطاطيف على الحافة العليا لجانب السفينة.»

كان ارتفاع الكتلة الجليدية حوالي ستين قدمًا، وكان من شأنها أن تسحق السفينة إذا وقعت عليها. مرَّت لحظةُ ترقُّبٍ لا يمكن وصفُها، وتراجع الطاقمُ للخلف متخلِّين عن أماكنهم على الرغم من أوامر القبطان.

وفي اللحظة التي كانت فيها الكتلة الجليدية على مسافة لا تزيد عن نصف طول حبلي من السفينة «جون أردي» سُمع صوتٌ غليظ، وسقط عمودٌ مائي حقيقي على مقدمة السفينة، ثم ارتفعت على ظهر موجة عملاقة.

وصاح البحَّارة صيحةَ رعب، لكن عندما نظروا أمامهم وجدوا أن الكتلة الجليدية قد اختفت، وأن الممر أصبح خاليًا، ووعدهم المسطح المائي الهائل الذي تضيئه شمس الغروب بالإبحار السهل.

وصاح بينيلون: «كل الأمور على ما يُرام، لنضبط الأشرعة العلوية والخلفية!»

لقد حدث للتوِّ أمرٌ شائعُ الحدوث في مثل هذه الأماكن؛ فعندما تنفصل تلك الكتل الجليدية بعضها عن بعض في موسم ذوبان الجليد، فإنها تطفو في توازن مثالي، لكن عندما تصل المحيط الذي تكون المياه فيه أكثر دفئًا نسبيًّا، فإنها سرعان ما تتآكل من القاعدة التي تذوب رويدًا رويدًا، وتهتز أيضًا بفعل الاصطدام بالكتل الجليدية الأخرى. وفي لحظةٍ يختل مركز الجاذبية في هذه الكتل الجليدية ثم تنقلب. ولو أن هذه الكتلة الجليدية انقلبت بعد دقيقتين فقط، لكانت قد سقطت على السفينة وأخذتها معها في سقوطها.

الفصل الخامس

جزيرة ليفربول

أصبحت السفينة الآن تُبحِر في بحر شبه مفتوح، ولاح في الأُفُق ضوءٌ أبيض لا يتحرك، مما أنبأهم بوجود مساحات جليدية ثابتة.

وجَّه جون كورنبوت السفينةَ «جون أردي» إلى كيب بروستر، وكانوا يقتربون بالفعل من مناطقَ تتسم بانخفاض شديد في درجات الحرارة؛ لأن أشعة الشمس تكون مائلةً في هذه المناطق، ومن ثَمَّ تكون ضعيفةً للغاية.

وفي الثالث من أغسطس واجهت السفينةُ كتلًا جليدية ثابتة ومتحدة، ونادرًا ما كان عرض الممرات يزيد عن طول حبل بحري، واضطرت السفينة إلى سلوك منعطفات كثيرة جعلتها في مواجهة الرياح في بعض الأحيان.

وراقب بينيلون ماري بعناية أبوية، وأقنعها على الرغم من البرد بقضاء ساعتين أو ثلاث ساعات يوميًّا على ظهر السفينة؛ لأن التريُّضَ أصبح من الشروط الصحية التي لا يمكن الاستغناء عنها.

ما وهنت شجاعةُ ماري، بل بثَّت الطمأنينة في نفوس البحَّارة بحديثها المبهج، وأصبحوا جميعًا متعلِّقين بها على نحو ودي، وأظهر أندريه فازلينج اهتمامه أكثرَ من أي وقت مضى، وانتهز كلَّ فرصةٍ ليكون برفقتها، لكن الفتاة الشابة بحسِّها الداخلي قابلت خدماته ببعض البرود. وربما كان من السهل تخمينُ أن حديث أندريه يشير إلى المستقبل أكثر منه إلى الحاضر، وأنه لم يضمِر الاحتمالَ البسيط المتمثل في إنقاذ المفقودين؛ لقد كان مقتنعًا بأنهم فُقدوا، وأن الشابة من هذا المنطلق حريٌّ بها أن تكرِّس نفسها لشخص آخَر.

لم تكن ماري قد فهمت نوايا أندريه بعدُ؛ لأنه لم يجد مطلقًا فرصةً للتحدُّث معها طويلًا على انفراد، واستاء كثيرًا لذلك؛ فدائمًا كان يختلق بينيلون عذرًا ليتدخَّل ويعبِّر عن آرائه التي تشع بالأمل، محطِّمًا أثرَ كلام أندريه.

في الوقت نفسه، لم تبقَ ماري عاطلةً؛ فعملًا بنصيحة قائد الدفة بدأت بحياكة ملابسها الشتوية؛ حيث كان من الضروري أن تغيِّر ملابسها بالكامل؛ فقد كانت قصَّات فساتينها غير مناسبة لهذه الأماكن الباردة؛ ولذلك صنعت سراويلَ من الفِراء كانت أطرافها مبطَّنةً بجلد الفقمة، وكانت تنانيرها الضيقة تصل فقط إلى الركبة كيلا تلمس طبقات الثلوج التي ستغطي الحقول الجليدية في الشتاء، أما الجزء العلوي من جسدها فكان محميًّا بعباءة من الفِراء مقاسها مناسبٌ تمامًا للجسم ومزودة بقلنسوة.

وفي فترات الراحة من العمل جهَّز البحَّارة أيضًا ملابسهم التي ستقيهم البرد، وصنعوا كميةً من الأحذية الطويلة العنق المصنوعةِ من جلد الفقمة؛ ليعبُروا بها الثلج أثناء رحلات الاستكشاف، وعملوا على هذا النحو طوال الوقت الذي استمر فيه الإبحار في المضايق.

أما أندريه فازلينج الذي كان قناصًا ماهرًا، فقد أسقط ببندقيته الطيورَ البحرية مراتٍ عديدة؛ فدائمًا ما كانت تحوم أسرابُ الطيور التي لا حصر لها حول السفينة، ووفَّر بط العيدر للطاقم طعامًا شهيَّ المذاقِ كسرَ رتابةَ تناول اللحم المملَّح.

أخيرًا، وبعد الكثير من المنعطفات، أصبحت السفينة في مواجهة كيب بروستر، وأنزل الطاقم قاربًا طويلًا إلى البحر، ووصل جون كورنبوت وبينيلون إلى الساحل الذي كان مهجورًا تمامًا.

وعلى الفور وجَّهت السفينة مسارها صوب جزيرة ليفربول التي اكتشفها القبطان سكورسباي عام ١٨٢١، وهلَّل الطاقم بسعادة عندما رأوا السكان المحليين يجرون على الشاطئ، وسرعان ما تواصلوا معهم بفضل معرفة بينيلون كلماتٍ قليلةً من لغتهم، ومعرفة السكان المحليين عباراتٍ تعلَّموها من صائدي الحيتان الذين يترددون على هذه الأماكن.

كان سكان جرينلاند قصارَ القامة وممتلئين، وطولهم لا يزيد عن أربع أقدام وعشر بوصات، وكانت بشرتهم حمراء وجباههم صغيرة؛ وشعرهم الأسود الناعم ينسدل على أكتافهم؛ وكانت أسنانهم مسوَّسة، وكانوا مصابين بالأمراض الجلدية المتوطِّنة في القبائل التي تتغذَّى على الأسماك.

وفي مقابل بعض القِطَع الحديدية والنحاسية التي كانوا يتوقون إليها بشدة، قدَّمت هذه المخلوقات المسكينة فِراء الدببة، وجلودَ عجول البحر، وكلاب البحر، وذئاب البحر،

وكل الحيوانات المعروفة عامة بالفقمة، وحصل جون كورنبوت عليها بثمن زهيد، وكان من المؤكد أنها ستكون مفيدة للغاية.

ثم أفهم القبطان المحليين أنه يبحث عن سفينة غارقة، وسألهم إن كانوا سمعوا عنها شيئًا أم لا؛ فرسم أحدهم على الفور شيئًا يشبه السفينة، وأوضح أن سفينةً من ذلك النوع سحبت شمالًا منذ ثلاثة أشهر، وتمكَّن أيضًا من إفهامهم أن ذوبان الحقول الجليدية وتكسُّرها منعَ سكان جرينلاند من البحث عنها، وأن قوارب الكانو الخفيفة التي يحركونها بالمجاديف لا تستطيع خوض البحر في ذلك الوقت.

أعادت هذه الأخبار على قلَّتها الأملَ في نفوس البحَّارة، ولم يجد جون كورنبوت صعوبةً في إقناعهم بمواصلة التقدُّم في البِحَار القطبية.

وقبل مغادرة ليفربول، اشترى القبطان ستة من كلاب الإسكيمو التي سرعان ما تأقلمت على متن السفينة. ورفعت السفينة المرساةَ وأبحرت في صباح العاشر من أغسطس، ودخلت المضايق الشمالية في ظل رياح قوية.

كان أطول أيام السنة قد حلَّ؛ فالشمس لا تغرُب في دوائر العرض المرتفعة هذه، وبلغت الشمس ذروة المسارات الحلزونية التي ترسمها في الأفق.

ورغم ذلك، لم يكن الغيابُ التامُّ للَّيلِ شديدَ الوضوح؛ لأن الضباب والمطر والجليد كانت في بعض الأحيان تغشى السفينة فتصبح في ظلام دامس.

بدأ جون كورنبوت، الذي كان عازمًا على مواصلة التقدُّم لأبعد نقطة ممكنة، باتخاذ التدابير الصحية؛ فأقفل سطح السفينة بإحكام، واهتم بتهوية السفينة من الداخل كل صباح؛ ورُكِّبت المواقد، ووُضعت الأنابيب بحيث تولِّد أكبر قدر ممكن من الحرارة. ونصح البحَّارةَ بارتداء قميص صوفي واحد على القميص القطني، وأن يغلقوا العباءة المصنوعة من جلد الفقمة بإحكام. ولم تُشعل النيران؛ لأنه كان من المهم ادخار الخشب والفحم للبرد القارس.

كانت المشروبات الساخنة كالقهوة والشاي تُقدَّم بانتظام للبحارة صباحًا ومساءً، ونظرًا لأهمية العيش على اللحوم فقد كانوا يصيدون البط بأنواعه المختلفة المتوفرة في هذه المناطق.

بالإضافة إلى ذلك، ثبَّت جون كورنبوت في أعلى الصاري «منصة مراقبة»، وهي برميل مفتوح من ناحية واحدة، يبقى فيه البحَّار المراقِب باستمرار ليراقب الحقول الجليدية.

بعد يومين من غياب جزيرة ليفربول عن نظر السفينة ازدادت البرودة فجأة بسبب الرياح الجافة، ولاحظوا بعض مؤشرات الشتاء، ولم يكن أمام السفينة دقيقة لتضيعها؛

لأن الطريق كان سيصبح مغلقًا تمامًا أمامها خلال وقت وجيز، فتقدَّمت نحو المضايق التي كانت تحيط بها حقولٌ جليدية يبلغ سُمكُها ثلاثين قدمًا.

وفي صباح الثالث من سبتمبر وصلت السفينة «جون أردي» قمَّة خليج جيل هامكيس. كانت الأرضُ على بُعد ثلاثين ميلًا في اتجاه الرياح، وكانت تلك المرة الأولى التي تقف فيها السفينة أمام كتلة جليدية ليس بها منفذ ويبلغ عرضُها ميلًا على الأقل، وأصبح ضروريًّا استخدام المناشير في قطع الجليد؛ فاختير بينيلون وأوبيك وجرادلان وتوركيت للقَطْع بالمناشير التي حُمِلت إلى خارج السفينة، وحُدِّد اتجاه القطع بحيث يحمل التيار القِطَع المنفصلة بعيدًا عن الكتلة الجليدية، وعكف الطاقم كله على هذه المهمة ما يقرب من عشرين ساعة، ووجدوا صعوبة بالغة في البقاء على الجليد، واضطروا في كثير من الأحيان إلى الغوص في الماء حتى منتصف أجسادهم، ووفَّرت السترات المصنوعة من جلد الفقمة حمايةً لهم من البلل وإن لم تكن حمايةً مثالية.

إضافة إلى ذلك، في دوائر العرض المرتفعة هذه سرعان ما يتبع الجهد البالغ إنهاك شديد؛ حيث تنقطع الأنفاس في غضون وقت قليل، ويضطر حتى أقوى الأشخاص إلى الاستراحة على فترات متقاربة.

وفي النهاية أصبح المجرى الملاحي سالكًا، وسُحبت السفينة إلى ما وراء الكتلة الجليدية التي ظلت معترضةً طريقها فترةً طويلة.

الفصل السادس

زلزال جليدي

ظلَّت السفينة «جون أردي» تصارع العقبات الكئود عدة أيام، وكان الطاقم يعمل طوال الوقت تقريبًا بالمناشير، وأحيانًا كثيرة كانوا يستخدمون البارود في تفجير الكتل الجليدية العملاقة التي تعترض الطريق.

وفي الثاني عشر من سبتمبر أصبح البحر مكونًا من كتلة صلبة واحدة ليس بها منفذ ولا ممر، وأحاط بالسفينة من كل الجهات، ومن ثم لم تتمكَّن من التقدُّم أو التراجع، وظل متوسط درجة الحرارة عند ست عشرة درجة تحت الصفر. لقد أقبل موسم الشتاء بمشاقه وأخطاره.

في ذلك الوقت كانت السفينة «جون أردي» عند خط طول ٢١ غربًا ودائرة عرض ٧٦ شمالًا عند مدخل خليج جيل هامكيس.

أعدَّ جون كورنبوت التجهيزات الأولية لتمضية الشتاء، وبحث أولًا عن شق يحمي بموقعه السفينةَ من الرياح وتكسُّر الجليد. وكانت الأرض، التي يُرجَّح أنها على بُعد ثلاثين ميلًا غربًا، هي وحدها ما يمكن أن يوفِّر له ملاذًا آمنًا، وقرَّر محاولة الوصول إليها.

وانطلق في الثاني عشر من سبتمبر بصحبة أندريه فازلينج وبينيلون واثنين من البحَّارة هما جرادلان وتوركيت، وحمل كل رجل مئونةً تكفي يومين؛ حيث كان من غير المحتمل أن تستمر رحلتهم الاستكشافية وقتًا أطول، وكانوا مزودين أيضًا بجلود للنوم.

هطلت الثلوج بغزارة هائلة ولم تكن متجمدةً بعدُ، وتسبَّب ذلك في تأخيرهم تأخيرًا شديدًا؛ ففي الغالب كانوا يغوصون حتى الخاصرة، ولا يسعهم التقدُّم إلا بحرص شديد خوفًا من السقوط في الشقوق. أما بينيلون الذي كان يسير في المقدمة، فقد كان يقيس بدقةٍ عُمقَ كل منخفضٍ مستخدمًا عصاه ذات الطرف الحديدي.

وفي حوالي الخامسة مساءً بدأ الضباب يتكاثف، وأُجبرت المجموعة الصغيرة على التوقُّف، وبحث بينيلون عن جبل جليدي يحميهم من الرياح، وبعد أن استراحوا، ولعدم وجود مشروبات ساخنة معهم بكل أسف، فرشوا الجلود على الجليد، وتدثروا، ورقدوا متراصين، وسرعان ما غطوا في النوم من فرط التعب.

وفي صباح اليوم التالي، كان جون كورنبوت ورفاقه مدفونين أسفل طبقة من الجليد عمقها يزيد عن قدم، ولحسن الحظ، فإن الجلود التي لا تسمح أبدًا بنفاذ السوائل حمتهم، فضلًا عن الجليد نفسه الذي ساعد في الاحتفاظ بحرارة أجسامهم ومنعها من التسرب.

أعطى القبطان إشارة المغادرة، وقُبيل الظهيرة لمحوا أخيرًا الساحل الذي كادوا لا يميزونه في البداية، وبرزت على الشاطئ نتوءات عالية مقطوعة على نحو عمودي من الجليد؛ وأظهرت قممها الملونة المتنوعة الهيئات والأشكال على نطاق كبيرٍ ظاهرةَ التبلور. طار عدد هائل من الطيور المائية عند اقتراب الجماعة، أما الفقمات الراقدة في كسل على الجليد فغاصت بسرعة إلى الأعماق.

قال بينيلون: «في الواقع لن نحتاج إليها، لا للفراء ولا للطعام!»

فأجاب كورنبوت: «هذه الحيوانات تمثِّل دليلًا على أن البشر قد زاروا هذا المكان من قبلُ؛ لأنه في الأماكن غير المأهولة بالكامل لن تكون الحيوانات بهذا الجموح.»

فقال أندريه فازلينج: «لا يتردد على هذه الأجزاء إلا سكان جزيرة جرينلاند.»

وقال بينيلون الذي اعتلى قمةً عاليةً: «لكني لا أرى أثرًا لمرورهم ولا حتى مخيمًا أو كوخًا صغيرًا.» واستطرد قائلًا: «أيها القبطان، تعالَ إلى هنا! لقد رأيت بقعة أرض ستحمينا من الرياح الشمالية الشرقية على نحو رائع.»

فقال جون كورنبوت: «تعالوا أيها الفتية!»

تبعه رفاقه وسرعان ما انضموا إلى بينيلون. وكان ما قاله البحَّار حقيقيًّا؛ فقد كانت توجد صخرة مرتفعة ممتدة مثل اللسان ومنحنية صوب الساحل، كوَّنت خليجًا صغيرًا عرضه ميل على الأكثر. وكانت بعض الكتل الجليدية المتحركة المنكسرة بفعل تلك الصخرة تطفو في الوسط، ولم يكن سطح البحر متجمدًا تمامًا بعدُ؛ لأنه محمي من الرياح الباردة.

كان المكان مناسبًا تمامًا لقضاء الشتاء، ولم يبقَ سوى إحضار السفينة إلى هذه النقطة. وقال جون كورنبوت إن الحقل الجليدي المجاور كثيف للغاية، وسيكون من الصعب جدًّا شق قناة لإحضار السفينة إلى هذه الوجهة المقصودة؛ ولذلك، كان من الضروري العثور على شق آخَر، وبحثوا سدًى جهةَ الشمال. كان الساحل وعرًا وخطرًا

لمسافة طويلة، وبعيدًا عن ذلك الشق كان معرَّضًا تمامًا لهجمات الرياح الشرقية، وزاد هذا الوضع القبطانَ ارتباكًا؛ لأن أندريه فازلينج استخدم حججًا قوية ليوضح مدى سوء الموقف. ووسط هذا المأزق وجد بينيلون صعوبةً في إقناع نفسه بأن الأمور ستئول إلى الخير.

لم يبقَ إلا فرصة واحدة تمثَّلت في العثور على ملجأ عند الجانب الجنوبي من الساحل. وكان معنى ذلك أن يعودوا أدراجهم، ولم يكن التردُّد مجديًا. وعادت المجموعة الصغيرة سريعًا في اتجاه السفينة؛ لأن المؤن بدأت تنفد. وطوال الطريق، بحث جون كورنبوت عن ممر مناسب، أو صدع على الأقل يمكن شق قناة من خلاله عبْر الحقول الجليدية، لكن بحثه ذهب سدًى.

وقرب المساء وصل البحَّارة إلى المكان نفسه الذي عسكروا فيه الليلة البارحة، ولم يكن يوجد ثلج أثناء النهار، وتمكَّنوا من التعرُّف على آثار أجسادهم على الجليد، وجهَّزوا أنفسهم مرة أخرى للنوم متدثرين بالفراء.

كان بينيلون أرقًا في نومه بسبب انزعاجه الكبير من فشل الرحلة الاستكشافية، وفي لحظةِ أرقٍ لفت انتباهه صوت غير واضح، فاستمع بإنصات، وبدا الصوت غريبًا للغاية حتى إنه وكز جون كورنبوت بمرفقه.

فقال الأخير: «ما هذا؟» حيث استيقظ ذهنه بمجرد أن استيقظ جسمه كعادة البحَّارة.

«استمِع أيها القبطان.»

وتزايدت الضوضاء بعنف ملحوظ.

فنهض جون كورنبوت وقال: «لا يمكن أن يكون هذا رعدًا في دائرة العرض المرتفعة هذه.»

فأجاب بينيلون: «لا بد أننا اقتربنا من بعض الدببة القطبية.»

«يا للشيطان! إننا لم نرَ أيًّا منها بعدُ.»

«لكننا توقَّعنا زيارةً منها عاجلًا أو آجلًا. هيا نستقبلها استقبالًا حافلًا.»

عبَر بينيلون بخفةٍ الكتلةَ الجليدية التي تحميهم حاملًا بندقية. وكان الظلام كثيفًا، ولم يستطِع اكتشاف شيء، لكن سرعان ما أوضح له طارئ جديد أن مصدر الضوضاء لا يأتي من حولهم.

وانضم إليه جون كورنبوت، ولاحظا في ذعر أن هذه الضوضاء التي أيقظت رفاقهم صادرة من أسفلهم.

وأصبحوا مهدَّدين بخطر من نوع جديد، وبالإضافة إلى تلك الضوضاء التي كانت تشبه دويَّ الرعد أصبح الحقل الجليدي يهتز في حركة موجية مميزة، واختل توازن الكثير من الرفاق وسقطوا.

فصاح بينيلون: «انتبهوا!»

فأجاب أحدهم: «حسنًا!»

«توركيت! جرادلان! أين أنتما؟»

فأجاب توركيت وهو ينفض الثلج الذي كان يغطيه: «أنا هنا.»

فقال كورنبوت لزميله: «من هذه الناحية يا فازلينج، ماذا عن جرادلان؟»

فصاح جرادلان في خوف: «موجود يا قبطان، لكننا ضائعون!»

فقال بينيلون: «كلا! ربما نجونا!»

ولم يكد ينطق هذه الكلمات حتى سمع صوتَ تصدُّعٍ مخيفًا، وانكسر الحقل الجليدي، واضطر البحَّارة إلى التعلُّق بالكتلة الجليدية التي كانت تهتز بجوارهم. وعلى الرغم من كلام قائد الدفة، فقد وجدوا أنفسهم في موقف بالغ الخطورة؛ فلقد حدث للتوِّ زلزال جليدي؛ حيث رفعت الكتل الجليدية مراسيها للتوِّ كما يقول البحَّارة، واستمر الزلزال قُرابة دقيقتين، وكانوا يخشون أن يتَّسع الشق أسفل أرجل البحَّارة التعساء، وترقَّبوا في لهفة ضوء النهار وسط الاهتزازات المستمرة؛ إذ لم يكن باستطاعتهم التحرُّك خطوةً واحدة دون أن يكونوا مهددين بالموت، واضطروا إلى أن يظلوا ممددين بالكامل تجنبًا للخسف.

وبمجرد أن بزغ ضوء النهار رأوا أمام أعينهم منظرًا مختلفًا تمامًا؛ فالحقل الواسع الذي كان بالأمس كتلةً صلبةً أصبح الآن متناثرًا في أماكنَ شتَّى، في حين أسفرت الأمواج التي رفعها الاضطراب الذي حدث تحت سطح البحر عن تكسير الطبقة السميكة التي كانت ملاذًا لهم.

خطرت السفينة على بال جون كورنبوت فقال: «يا لسفينتي المسكينة! لا بد أنها دُمِّرت!»

وبدأ اليأس الشديد يعلو وجوه الرفاق؛ ذلك أن فقدان السفينة ينذر حتمًا بموتهم.

وقال بينيلون: «تحلَّوا بالشجاعة أيها الأصدقاء، وتذكَّروا أن كارثة الأمس فتحت لنا طريقًا عبْر الجليد سيمكِّننا من إحضار السفينة إلى الخليج من أجل تمضية الشتاء! توقفوا! أنا لست مخطئًا؛ فها هي السفينة «جون أردي» قد اقتربت مسافة ميل منَّا!»

أسرعوا جميعًا إلى الأمام وبلا تروٍّ لدرجة أن توركيت انزلق في أحد الشقوق وكان سيموت بالتأكيد لولا أن انتشله كورنبوت من قلنسوته، وخرج منه وقد أخذ حمَّامًا باردًا.

كانت السفينة بالفعل تطفو على بُعد ميلين، وبعد عناء كبير وصلت الجماعة الصغيرة إلى السفينة التي كانت في حالة جيدة، إلا أن الجليد كسر الدَّفة التي نسوا رفعها.

الفصل السابع

الاستقرار لقضاء الشتاء

كان بينيلون محقًّا مرةً أخرى؛ فقد آلت الأمور إلى أفضل ما يُرام، وفتح الانهيار الجليدي قناةً صالحة يمكن أن تعْبر منها السفينة إلى الخليج، ولم يبقَ أمام البحَّارة سوى استغلال التيارات بمهارة لقيادة السفينة إلى ذلك الاتجاه.

وفي التاسع عشر من سبتمبر رست السفينة أخيرًا في الخليج لتمضية الشتاء، وكانت على مسافة حبلين بحريين من الشاطئ، مرتكزة بثبات على قاع جيد، وبدأ الجليد يتراكم حول بدنها في اليوم التالي، وسرعان ما أصبح قويًّا على نحو يكفي لتحمُّل وزن إنسان، واستطاعوا الوصول إلى البَر.

وكما هو معتاد في الملاحة القطبية؛ ظلت حبال الأشرعة كما هي، وطُويت الأشرعة بعناية حول العوارض وغُطيت بأغلفتها، وبقيت «منصة المراقبة» في مكانها؛ لتُمَكِّنهم من المراقبة عن بُعد ولجذب الانتباه إلى السفينة أيضًا.

نادرًا ما كانت الشمس تلوح في الأفق؛ فمنذ الانقلاب الصيفي في يونيو، أخذت المسارات الحلزونية التي تظهر في الأفق تنخفض لأسفل، وسرعان ما ستختفي تمامًا.

أسرع الطاقم في إعداد التجهيزات الأساسية، وأشرف بينيلون على كل شيء، وسرعان ما أصبح الجليد كثيفًا حول السفينة، وخافوا من أن يشكل ضغط الجليد خطرًا على السفينة، لكن بينيلون انتظر حتى وصل سُمْكه إلى عشرين قدمًا بفعل حركة الكتل الجليدية الطافية وتلاصقها، ثم قَطعَ الجليد حول بدن السفينة بحيث يشكل كتلةً واحدة أسفل السفينة ويتخذ شكلها، وعندما أصبحت السفينة محاطةً بقالب من الجليد لم يعد يوجد خوف من ضغط الجليد؛ لأنه لن يستطيع تحريكها.

ثم بنى البحَّارة بطول العوارض وصولًا إلى ارتفاع الشباك حائطًا من الجليد سُمْكه يتراوح ما بين خمس أو ست أقدام، وسرعان ما تجمَّد هذا الحائط محاكيًا صلابة الصخر.

لم يسمح هذا الغلاف الذي أحاط بالسفينة بتسرُّب حرارتها الداخلية للخارج. ونصبوا على طول ظهر السفينة خيمةً من الخيش مغطاة بالجلود ومقفولة بإحكام؛ لتكون بمثابة ممشى للبحارة.

بنوا أيضًا في الجليد مخزنًا جليديًّا خزَّنوا فيه الأدوات التي أعاقت الحركة في السفينة، وفكَّكوا أجزاء القمرات كي تكون غرفة واحدة فسيحة في مقدمة السفينة وفي مؤخرتها. وكانت هذه الغرفة الواحدة تتَّسم أيضًا بسهولة التدفئة؛ نظرًا لقلة الأركان التي من الممكن أن يتراكم فيها الجليد والرطوبة، وبالإضافة إلى ذلك، اتسمت بسهولة التهوية عن طريق الأغطية المصنوعة من الخيش التي تُفتح للخارج.

بذل كل البحَّارة جهدًا هائلًا في هذه التجهيزات، وبحلول الخامس والعشرين من سبتمبر كانت قد اكتملت، ولم يُبدِ أندريه فازلينج نشاطًا يُذكر في هذه المهمة؛ إذ كرَّس نفسه بحماسة شديدة لراحة الفتاة الشابة، ومع أن هذه الفتاة الغارقة في التفكير في المسكين لويس لم تدرك ذلك، فإن جون كورنبوت سرعان ما لاحظ، وأخبر بينيلون عن ذلك، وتذكَّر عدة مواقف أوضحت له بالكامل نوايا نائب الربان؛ فأندريه فازلينج يحب ماري ويفكِّر في طلب يدها من خالها، وبمجرد أن يثبت، بما لا يدع مجالًا للشك، أن المفقودين فُقدوا بلا رجعة، سوف يعودون إلى دنكيرك، وسوف يكون أندريه فازلينج راضيًا تمامًا عن الزواج من فتاة ثرية وجميلة ستصبح عندئذٍ الوريثةَ الوحيدة لجون كورنبوت.

إلا أن أندريه كان نافد الصبر؛ لذا كان كثيرًا ما يتهوَّر؛ فلقد أعلن مراتٍ عديدة أن البحث عن المفقودين لا طائل من ورائه، وحينها كان يظهر دليل جديد يناقض كلامه ويمكِّن بينيلون من الانتصار عليه. ولهذا السبب كان نائب الربان يكره قائد الدَّفة من أعماق قلبه، وبادله بينيلون كرهًا بكره، ولم يكن بينيلون يخشى إلا أن يزرع أندريه بذور الشِّقاق بين الطاقم، وأقنع جون كورنبوت بأن يردَّ عليه ردًّا مراوغًا في أول فرصة.

وعندما اكتملت تجهيزات الشتاء، اتخذ القبطان إجراءات للحفاظ على صحة الطاقم؛ فأمر الرجال بتهوية المهاجع كل صباح، وتنظيف الحوائط الداخلية بعناية للتخلُّص من رطوبة الليل. وتلقَّوا الشاي المغلي أو القهوة المغلية صباحًا ومساءً؛ فهي مشروبات ممتازة للوقاية من البرد؛ ثم قُسِّموا إلى جماعات للصيد مسئولة عن توفير أكبر قدْر ممكن من الأغذية الطازجة يوميًّا.

كان لزامًا أن يؤدي كل واحد بعض التمارين الصحية يوميًّا كي لا يعرِّض نفسه للبرد دون حركة؛ لأنه في درجة الحرارة التي تقل عن ثلاثين درجة تحت الصفر من

الممكن أن يتجمَّد أحد أجزاء الجسم فجأة. وفي هذه الحالات يستخدم التدليك وحك الجليد فقط في علاج الجزء المصاب.

بالإضافة إلى ذلك، اقترح بينيلون الاغتسال بالماء البارد يوميًّا، وكان من اللازم التحلِّي بالشجاعة لغمر اليدين والوجه في الجليد الذي كان ذائبًا في الداخل، إلا أن بينيلون ضرب المثل بنفسه، ولم تكن ماري آخر مَن قلَّده.

ولم ينسَ جون كورنبوت القراءة والصلوات؛ حيث كان من الضروري ألا يتسلل إلى قلوب الرِّفاق اليأس أو القلق؛ فهذا أكبر ما يشكل خطرًا في مثل هذه الأماكن المقفرة.

كانت السماء مظلمة دائمًا وتبث الحزن في الروح، وزاد أهوالَ الموقف الجليدُ الكثيف الذي تضربه الرياح العاتية، وسرعان ما ستختفي الشمس تمامًا، ولو لم تتجمَّع السُّحب بكثافة فوق رءوسهم لاستمتعوا بضوء القمر الذي كان سيصبح شمسهم حقًّا أثناء الليل القطبي الطويل؛ إلا أن الثلوج لم تتوقَّف عن الهطول بسبب الرياح الغربية. وفي كل صباح كان من اللازم إزالة الجليد عن جوانب السفينة، وحفر سلالم جديدة في الجليد؛ ليتمكَّنوا من الوصول إلى الحقل الجليدي، ونجحوا في فعل ذلك بسهولة بفضل سكاكين الجليد؛ فبمجرد حفر درجات السُّلَّم يُلقى عليها القليل من الماء وتصبح صلبة على الفور.

شق بينيلون حفرةً في الجليد على مسافة ليست ببعيدة عن السفينة، وفي كل يوم كانوا يكسرون القشرة الجديدة التي تتكوَّن فوق فتحة الحفرة، وكان الماء الذي يستخرجونه منها عند عمق معين أقل برودة من ذلك الموجود على السطح.

استغرقت كل هذه التجهيزات حوالي ثلاثة أسابيع. وعندئذٍ حان وقت مواصلة البحث. ظلت السفينة عالقةً ستة أشهر أو سبعة، ولم يكن من الممكن شق طريق جديد في الجليد إلا في موسم ذوبان الجليد المقبل؛ ولذلك كان من الحكمة الاستفادة من هذه المهلة، ومواصلة البحث شمالًا.

الفصل الثامن

خطة البحث

في التاسع من أكتوبر، عقد جون كورنبوت اجتماعًا للاتفاق على خطة العمليات التي يمكن أن يُبدي الجميع موافقةً وتحمُّسًا وشجاعة تجاهها، ودعا كل أفراد الطاقم، وأمسك الخريطة في يده، وشرح الموقف بوضوح.

كان الساحل الشرقي لجرينلاند يمتد عموديًّا صوب الشمال، وكانت اكتشافات البحَّارة قد منحت حدودًا دقيقة لتلك الأجزاء. لم تُكتشَف أي أرض على طول المسافة البالغة خمسمائة فرسخ والتي تفصل جرينلاند عن اسبيتسبيرجين، وكانت توجد جزيرة تُدعى «جزيرة شانون» على مسافة خمسة أميال شمال خليج جيل هامكيس؛ حيث تمكث السفينة «جون أردي» في الشتاء.

لو كان القارب النرويجي قد انجرف في هذا الاتجاه كما هو مرجَّح على افتراض عدم قدرته على الوصول إلى جزيرة شانون، فإن هذا المكان هو المفترض أن يكون لويس كورنبوت ورفاقه قد لاذوا به لقضاء الشتاء.

وقع الاتفاق على هذا الرأي على الرغم من معارضة أندريه فازلينج، وتقرَّر توجيه حملات البحث ناحية جزيرة شانون.

بدأت الترتيبات المتعلقة بهذا الأمر على الفور، وحصلوا من ساحل النرويج على زلَّاجة مثل تلك التي يستخدمها الإسكيمو، مكوَّنة من ألواح خشبية مقوَّسة من الأمام والخلف، ومصمَّمة للانزلاق على الجليد والثلج؛ كان طولها اثنتي عشرة قدمًا، وعرضها أربع أقدام؛ ومِن ثَمَّ كانت قادرة على حمل مؤن تكفي أسابيع إذا اقتضى الأمر، وسرعان ما بدأ فيديل ميزون تجهيزها، وعمل في المخزن الجليدي الذي نُقلت إليه أدواته، وشيَّدوا موقد فحم لأول مرة في هذا المخزن، ولولاه لأصبح من المستحيل إنجاز تلك الأعمال هناك. مُدَّت المدخنة للخارج عبْر أحد الحوائط الجانبية، عن طريق عمل ثقب في الجليد، لكن نشأ عن

ذلك مشكلة كبيرة؛ حيث تسببت حرارة الموقد في ذوبان الجليد الذي تحتكُّ به تدريجيًّا، واتسع الثقب على نحو واضح، وتمكَّن جون كورنبوت من إحاطة هذا الجزء من المدخنة بشبكة معدنية مقاوِمة للحرارة، ونجح ذلك الأمر نجاحًا تامًّا.

وبينما كان ميزون يُعِد الزلَّاجة، كان بينيلون يجهِّز الملابس اللازمة للرحلة بمساعدة ماري، ولحسن الحظ كان متوفِّرًا لديهم بكثرة أحذية من جلد الفقمة. وانشغل جون كورنبوت وأندريه فازلينج بتجهيز المؤن، واختارا برميلَ كحول صغيرًا ليكون بمثابة موقد محمول، وحزموا كميات وفيرة من البن والشاي، واكتمل مخزون الطعام بصندوق صغير من البسكويت، ومائتي رطل من لحم البيميكان، وبعض زجاجات البراندي. كانوا سيصطادون بالبنادق لتوفير اللحم الطازج يوميًّا، وقسَّموا كمية البارود على عدة حقائب، ووضعوا البوصلة وآلة السدسية المستخدَمة في تحديد اتجاه السفن، والمنظار المقرِّب في مكان آمن تجنبًا لتعرُّضها للكسر.

في الحادي عشر من أكتوبر لم تَعُد الشمس تسطع في الأفق، وكانوا مضطرين إلى إبقاء المصباح مضاءً في مهاجع الطاقم طوال الوقت، ولم يكن أمامهم أي وقت ليضيعوه؛ كان لا بد من البدء في البحث؛ لأنه في شهر يناير سيصبح البرد قارسًا وسيكون من المستحيل الخروج دون التعرُّض للهلاك، وسيضطر الطاقم إلى أن يظل محبوسًا تمامًا شهرين على الأقل حتى يبدأ ذوبان الجليد، ويستمر إلى أن تبرح السفينة الجليد، وبطبيعة الحال سيمنع ذوبان الجليد عمليات البحث. على صعيدٍ آخر، لو كان لويس كورنبوت ورفاقه ما زالوا على قيد الحياة، فإنه من غير المحتمل أن يتمكنوا من مقاومة مشاقِّ الشتاء القطبي؛ ولهذا السبب لا بد من إنقاذهم قبل حلول الشتاء وإلا فسيُفقَد الأمل في إنقاذهم. كان أندريه فازلينج يعرف ذلك أكثر من أي شخص آخر؛ ولذلك قرَّر وضع كل العراقيل الممكنة في طريق البحث.

اكتملت تجهيزات الرحلة قبيل العشرين من أكتوبر، ولم يتبقَّ سوى اختيار الرجال الذين ستتألف منهم مجموعة البحث. لم يكن من الممكن أن تُحرم الفتاة الشابة من حماية جون كورنبوت أو بينيلون، وفي الوقت نفسه لم يكن من الممكن الاستغناء عنهما في فريق البحث.

أصبحت المسألة هي إذا ما كانت ماري تستطيع أن تتحمل متاعب هذه الرحلة أم لا. لقد مرَّت بالفعل بتجاربَ صعبةٍ دون أن يبدو عليها المعاناة من أي منها؛ لأنها ابنة بحَّار، ومعتادة منذ الطفولة على متاعب البحر، حتى إن بينيلون لم يكن قلقًا من رؤيتها وهي تواجه أخطار البِحَار القطبية في ذلك المناخ القاسي.

ومن ثَم تقرَّر بعد نقاش طويل ضرورة اصطحابها معهم، مع ضرورة توفير مكان لها على الزلَّاجة عند الحاجة، وقد شُيد على هذه الزلاجة كوخ خشبي صغير مقفل بإحكام، أما ماري فكانت مسرورة لأنها خشيت أن تُترك وحيدة دون حارسيها.

وعلى هذا الأساس كوَّنوا فريق البحث وقرَّروا ذهاب كلٍّ من ماري وجون كورنبوت وبينيلون وأندريه فازلينج وأوبيك وفيديل ميزون، بينما ظل ألان توركيت مسئولًا عن السفينة ومعه جيرفيك وجرادلان، وحملوا معهم مؤنًا جديدة من كل الأنواع؛ حيث قرَّر جون كورنبوت تأسيس مستودعات على طول الطريق كل مسيرة سبعة أو ثمانية أيام كي يضمن استمرار البحث لأبعد نقطة ممكنة. وعندما أصبحت الزلَّاجة جاهزة حملوا عليها الأمتعة، وغطَّوها بظلة من الجلد، وبلغ الوزن في مجمله ما يعادل سبعمائة رطل؛ أي ما يَقدِر على جرِّه على الجليد بسهولة خمسة كلاب.

وفي الثاني والعشرين من أكتوبر، وكما توقع القبطان، حدث تغيُّر مفاجئ في درجة الحرارة؛ فقد أصبحت السماء صافية، وأشعت النجوم ضوءًا برَّاقًا، وبزغ القمر في الأفق ولم يبرحه أسبوعين، وأشار الترمومتر إلى خمس وعشرين درجة تحت الصفر.

وفي اليوم التالي قرروا الرحيل.

الفصل التاسع

المنزل الجليدي

في الثالث والعشرين من أكتوبر، انطلقت القافلة في الحادية عشرة صباحًا في ضوء القمر الساطع، واتخذوا احتياطات في هذه المرة بحيث تستمر الرحلة مدةً أطول إذا اقتضت الضرورة. تبع جون كورنبوت الساحل وعرَّج شمالًا، ولم تترك خطوات المسافرين أي أثر على الجليد الصلب. واضطر جون كورنبوت إلى إرشاد نفسه بنقاطٍ حدَّدها من مسافة؛ فأحيانًا يثبِّت نظره على تل يعج بالقمم، وأحيانًا يركِّز على جبل جليدي ضخم رفعه الضغط عن الحقل الجليدي.

توقفوا للمرة الأولى بعد السير خمسة عشر ميلًا، وجهَّز بينيلون للتخييم، ونصبوا الخيمة قبالة كتلة جليدية. ولم تعانِ ماري معاناةً شاقة في هذا البرد القارس؛ لأن الرياح لحسن الحظ قد سكنت، وأصبحت محتمَلة إلى حدٍّ كبير؛ إلا أن الفتاة الشابة اضطرت مرات عديدة إلى النزول من الزلَّاجة كي تمنع الخَدَر من إعاقة دورتها الدموية. وفيما عدا ذلك، فقد وفَّر لها الكوخ الصغير المغطَّى بالجلود أقصى راحة ممكنة في مثل هذه الظروف.

وعندما كان يحُلُّ الليل، أو وقت النوم على الأحرى، كان يُحمل الكوخ الصغير تحت الخيمة فيصبح غرفةَ نوم لماري. تكونت وجبة المساء من لحم طازج ولحم البيميكان المجفَّف والشاي الساخن. وكان جون كورنبوت يوزِّع على كل فرد في الجماعة قطرات من عصير الليمون تجنبًا للإصابة بمرض الإسقربوط. وبعد ذلك كانوا ينامون جميعًا في حماية الرب.

وبعد ثماني ساعات من الراحة، استعدوا لاستئناف المسيرة، وقُدِّم للرجال والكلاب فطورٌ مميَّز، ثم انطلقوا. ومع تزايد تماسُك الجليد تمكَّنت الحيوانات من جر الزلَّاجة بسهولة، ووجدت الجماعة صعوبةً في مواكبة الحيوانات في بعض الأحيان.

إلا أن البحَّارة سرعان ما بدءوا يعانون مشكلة؛ ألا وهي انبهار بصرهم. وتجلَّى التهاب العين لدى أوبيك وميزون؛ فضوء القمر الساطع على المساحات البيضاء الواسعة يسبب حرقة العين، ويسبب لها ألمًا لا يُحتمل.

حدثت نتيجة غريبة لانكسار الضوء؛ فأثناء سيرهم، كانوا عندما يعتقدون أنهم على وشْك أن يضعوا أقدامهم على تل صغير يَخْطُون نحو الأسفل، وتسبَّب ذلك في سقطات كانت لحسن الحظ غير خَطِرة حتى إن بينيلون جعلها فرصًا للمزاح، ومع ذلك، أخبرهم بألا يَخْطُوا خطوة دون تحسُّس الأرض بالعصا ذات الطرف الحديدي التي يحملها كلٌّ منهم.

وقُبيل الأول من نوفمبر؛ أي بعد عشرة أيام من انطلاق القافلة، كانت القافلة قد قطعت خمسين فرسخًا صوب الشمال. طال الجميعَ تعبٌ شديد، وأُصيب بصر جون كورنبوت بالانبهار على نحو مؤلم، وتغيَّرت قدرته البصرية تغيرًا ملحوظًا. واضطر أوبيك وميزون إلى تحسُّس الطريق؛ لأن أعينهما التي أحاط بها الاحمرار كانت تعاني الحرقة بفعل انعكاس الضوء الأبيض. أما ماري فقد حفظها البقاء في الكوخ من هذا الحظ العاثر؛ إذ بقيت داخله كثيرًا قدْر الإمكان. وقاوم بينيلون كل هذه المتاعب بفضل شجاعته التي لا تُقهر. أما أندريه فازلينج فقد كان في أفضل حالاته، ولم يؤثر فيه البرد ولا انبهار البصر؛ فكانت بنيته الحديدية قادرةً على تحمُّل هذه المحن، وكان في سريرته سعيدًا برؤية الإحباط ينتاب أشد الرفاق، وتوقَّع بالفعل اللحظة التي سيضطرون فيها إلى العودة إلى السفينة مرة أخرى.

في الأول من نوفمبر أصبح من الضرورة القصوى التوقُّف يومًا أو يومين، وبمجرد أن اختاروا مكان التخييم شرعوا في تجهيزه، وقرروا تشييد منزل من الجليد يرتكز على إحدى صخور اللسان. وعلى الفور حدَّد ميزون الأساسات؛ حيث بلغ الطول خمس عشرة قدمًا، وبلغ العرض خمس أقدام. وباستخدام السكاكين قطع بينيلون وأوبيك وميزون قِطعًا جليدية كبيرة وحملوها للمكان المختار، وبدءوا البناءَ على غرار تشييد البنائين للجدران الحجرية. وسرعان ما بلغ ارتفاع الأساس وسُمكه قُرابة خمس أقدام؛ فالخامات كانت متوفرة، وكان من اللازم أن يكون البناء صلبًا على نحو يضمن بقاءه عدة أيام. اكتمل بناء الجدران الأربعة في غضون ثماني ساعات، وتركوا فتحة عند الجانب الجنوبي، وتدلَّى قماش الخيمة الموضوعة على الجدران الأربعة على تلك الفتحة وغطَّاها، ولم يبقَ سوى تغطية البناء بكتل كبيرة لتكون سقفًا لهذا البناء المؤقت.

اكتمل المنزل بعد ثلاث ساعات أخرى من العمل المضني، ودخلوه جميعًا وقد غلبهم التعب والإحباط. وعانى جون كورنبوت معاناة بالغة لدرجة أنه عجز عن السير، أما أندريه فازلينج فقد بالغ ببراعة في إظهار مشاعره الكئيبة لدرجة أنه انتزع وعدًا من كورنبوت بعدم مواصلة البحث في هذه الأماكن المخيفة. ولم يعلم بينيلون بأي من القديسين يستغيث؛ فقد رأى أنه من غير المقبول ومن الجبن التخلي عن البحث عن الرفاق لأسباب غير ذات قيمة، وحاول إقناعهم بالعكس لكن دون جدوى.

وعلى الرغم من أنه قد تقرَّرت العودة، فقد أصبحت الراحة ملحة للغاية حتى إنهم على مدار ثلاثة أيام لم يقوموا بأي استعدادات للمغادرة.

وفي الرابع من نوفمبر بدأ جون كورنبوت يدفن عند نقطة على الساحل المؤن التي لم يَعُد لها فائدة، ووُضعت لوحة توضِّح مكان مخزن المؤن تحسبًا للبحث مجددًا في هذا الاتجاه، وإن كان ذلك غير مرجَّح. وكانوا منذ أن انطلقوا في رحلتهم يصنعون مثل هذه المخازن كي يضمنوا وجود المؤن الكافية في طريق العودة دون أن يُرهقوا أنفسهم بحملها على الزلَّاجة.

حُدِّدت العاشرة صباحًا من الخامس من نوفمبر موعدًا للمغادرة، وغمر حُزنٌ عميق تلك الجماعةَ الصغيرة. وقاومت ماري دموعها بصعوبة عندما رأت خالها محبطًا تمامًا؛ لقد عانى ويلات كثيرة بلا فائدة، وذهب العمل المضني أدراج الرياح، وأصبح بينيلون نفسه عنيفًا في تلك الحالة المزاجية السيئة، ولعن الجميع ولم يكفَّ عن صب جام غضبه على ضعف وجبن رفاقه الذين كانوا أكثر خوفًا وتعبًا من ماري التي كانت مستعدة للذهاب إلى نهاية العالم دون شكوى، على حسب قوله.

أما أندريه فازلينج فلم يستطِع إخفاء فرحه بهذا القرار، وأظهر اهتمامه بالفتاة أكثر من أي وقت مضى، ومنحها أيضًا الأمل في البحث من جديد بعد انتهاء الشتاء رغم علمه أنه سيكون قد فات الأوان!

الفصل العاشر

مدفونون أحياء

في المساء السابق يومَ المغادرة، كان بينيلون قُبيل تناول العشاء يكسر بعض البراميل الفارغة ليستخدمها حطبًا للموقد عندما شعر فجأة بالاختناق من الدخان الكثيف، وفي اللحظة نفسها اهتز البيت الجليدي كما لو كان قد وقع زلزال، وأطلقوا صيحةَ رعب، وهُرعَ بينيلون للخارج.

كان الظلام دامسًا؛ فقد هبَّت عاصفة مخيفة؛ فالثلج لم يكن في حالة ذوبان، واندفعت دوامات الجليد في كل مكان، وازدادت البرودة حتى إن قائد الدفة شعر أن يديه تتجمدان بسرعة، واضطر إلى الدخول مرة أخرى بعد أن فرك نفسه بالجليد بقوة.

وقال: «إنها عاصفة، لنأمل أن يستطيع المنزل تحمُّلها؛ لأنه لو دمرته العاصفة سيكون مصيرنا الضياع!»

وأثناء هبوب الرياح العنيفة سُمع ضجيج آخَر من أسفل التربة المتجمدة؛ فالقطع الجليدية المتكسرة من الجبل الجليدي كانت تندفع مُصدِرةً ضجيجًا ويسقط بعضها على بعض، وهبَّت الرياح بعنف حتى إن المنزل الجليدي بدا في بعض الأحيان كما لو كان اقتُلع من أساسه، وكانت الأضواء الفسفورية التي لا يمكن تفسير سبب وجودها في هذه الأماكن تومض حول دوامات الجليد.

وصاح بينيلون وهو يمسك بيد الفتاة الشابة: «ماري! ماري!»

قال ميزون: «إننا في موقف سيئ!»

ردَّ أوبيك: «ولا أعلم إن كنَّا سننجو أم لا.»

قال فازلينج: «لنغادر هذا المنزل الجليدي!»

فأجاب بينيلون: «مستحيل! البرد شديد في الخارج، وعلى الأرجح يمكننا أن نتحمله بالبقاء هنا.»

فقال فازلينج بلهجة آمرة: «أعطني الترمومتر.»

فسلَّمه أوبيك إياه. وسجَّل الترمومتر عشر درجات تحت الصفر داخل المنزل على الرغم من أن النار كانت مشتعلة. ورفع فازلينج الستار الذي يغطي الفتحة ودفعه للخارج في عجلة؛ لأنه كان سيُصاب بجروح بسبب الثلج المتساقط الذي كانت الرياح تقذفه وكان يسقط في صورة عاصفة ثلجية.

وقال بينيلون: «حسنًا يا فازلينج هل ستخرج إذًا؟ لقد رأيت أننا أكثر أمنًا هنا.»

فقال جون كورنبوت: «نعم، ويجب أن نبذل كل جهد لتقوية المنزل من الداخل.»

فقال فازلينج: «لكن ما زال يهددنا خطر آخر أفظع.»

فسأله جون: «وما هو؟»

فقال: «الرياح تكسر الجليد الذي نستند عليه مثلما كسرت جليد اللسان، وسوف ننجرف أو نُدفن!»

فقال بينيلون: «يبدو هذا غير محتمل؛ لأن الثلوج تتساقط بغزارة تكفي لتجمد كل المسطحات المائية، لنرَ كم تبلغ درجة الحرارة!»

ورفع الستار كي يُخرِج ذراعه، ووجد صعوبة في العثور على الترمومتر وسط الجليد مرة أخرى، لكنه نجح أخيرًا في انتزاعه، وصوَّب المصباح نحوه وقال:

«إنها اثنتان وثلاثون درجة تحت الصفر! إننا لم نشهد بعدُ انخفاضًا في درجات الحرارة هنا على هذا النحو!»

استطرد فازلينج: «إذا انخفضت عشر درجات أخرى فسوف يتجمد زئبق الترمومتر!»

وساد صمت حزين بعد هذا التعليق.

وفي حوالي الثامنة صباحًا حاول بينيلون الخروج مرةً أخرى لتفقُّد الموقف، وكان من الضروري إيجاد مخرج للدخان الذي ردته الرياح إلى داخل الكوخ مراتٍ عديدة، ولفَّ البحَّار عباءته حوله بإحكام، وثبت القلنسوة على رأسه بربطها بمنديل، ورفع الستار.

فوجد كتلة جليدية صلبة تسد فتحة الكوخ بالكامل. أخذ بينيلون عصاه ونجح في غرزها في الكتلة المتماسكة، وتجمَّد الدم في عروقه عندما أدرك أن طرف العصا ليس حرًّا، وأنها علقت في جسم صلب!

فقال للقبطان الذي اقترب منه: «كورنبوت، لقد دُفنا تحت الجليد!»

فصاح جون كورنبوت: «ماذا تقول؟»

«قلت إن الثلج متجمع ومتجمد حولنا وفوقنا، وإننا مدفونون أحياء!»

فأجاب القبطان: «لنحاول إزاحة الكتلة الجليدية.»

دفع الصديقان العقبة التي تعترض فتحة الكوخ لكن لم يستطيعا تحريكها؛ إذ كوَّن الجليد كتلة زاد سُمكها عن خمس أقدام، وأصبحت بالفعل جزءًا لا يتجزأ من المنزل الجليدي. ولم يستطع جون أن يكتم صرخةً، أفاق على أثرها ميزون وفازلينج، وأطلق فازلينج السباب وتجهَّم. وفي هذه اللحظة تسلل الدخان إلى المنزل، وقد أصبحت كثافته أثقل من ذي قبل ولم يجد منفذًا للخروج.

صاح ميزون: «تبًّا! لقد سدَّ الجليد مدخنة الموقد!»

أخذ بينيلون عصاه، وأنزل المدخنة، بعد أن ألقى بعض الجليد على الجمر ليطفئه، فنتج دخان جعل ضوء المصباح لا يكاد يُرى، ثم حاول تنظيف فتحة المدخنة مستخدمًا العصا، إلا أنه وجد كتلة من الجليد! وبدا أن مصيرهم هو نهاية مخيفة مسبوقة بعذاب فظيع! واخترق الدخان حناجر الجماعة البائسة وسبَّب لهم ألمًا غير محتمل، وسرعان ما سيشح الهواء ولن يستطيعوا التنفس على الإطلاق!

في هذه اللحظة استيقظت ماري، وبثَّ وجودها اليأس في نفس جون كورنبوت، بينما أمد بينيلون بالشجاعة، فقال بينيلون في نفسه إنه من غير الممكن أن تكون هذه الميتة البشعة هي قدَر تلك الفتاة المسكينة.

قالت ماري: «آه! لقد أشعلت الكثير من النيران؛ فالغرفة تعج بالدخان!»

فأجاب بينيلون متلعثمًا: «نعم، نعم.»

استطردت ماري: «هذا واضح لأن الجو ليس باردًا، ولم نشعر بهذه الحرارة الكبيرة منذ فترة طويلة.»

ولم يجرؤ أحد على إخبارها بالحقيقة.

قال بينيلون في صراحة: «اسمعي يا ماري، ساعدينا في تحضير الفطور؛ فالجو شديد البرودة بالخارج ولا نستطيع الخروج. إليك الموقد، والكحول، والقهوة. تعالوا أيها الشباب وتناولوا أولًا لحم البيميكان المجفَّف؛ فالعاصفة المزرية تمنعنا من الصيد.»

بثَّت كلماته الحماسة في نفوس الرفاق.

وأكمل بينيلون: «لنأكل أولًا، ولنفكر بعدها في الخروج!»

ضرب بينيلون المثل وتناول حصته من الفطور، وقلَّده رفاقه، ثم احتسوا قدحًا من القهوة المغلية التي رفعت روحهم المعنوية. بعد ذلك قرَّر جون كورنبوت بحماسة ضرورةَ البدء على الفور في التوصُّل لطريقة لإنقاذ أنفسهم.

في هذه اللحظة قال أندريه فازلينج:

«إذا كانت العاصفة لا تزال مستمرة، وهذا هو الراجح، فلا بد أننا مدفونون على عمق عشر أقدام تحت الجليد؛ لأننا لا نستطيع سماع أي ضوضاء بالخارج.»

نظر بينيلون إلى ماري التي أصبحت الآن تدرك الحقيقة ولم ترتجف خوفًا، وسخَّن قائد الدَّفةِ طرفَ العصا الحديدي بلهب الموقد، وغرزها بنجاح في الجدران الجليدية الأربعة، لكنه لم يستطع أن يجد منفذًا في أي منها. ثم قرَّر كورنبوت أن يشق فتحة في الباب نفسه، إلا أن الجليد كان غاية في الصلابة بحيث لم تستطِع السكاكين أن تترك فيه أثرًا يُذكر، وسرعان ما زحمت القطع الجليدية المقطوعة الكوخ. وبعد العمل الشاق ساعتين تبيَّن أنهم لم يشقوا إلا تجويفًا عمقه ثلاث أقدام.

كان لا بد من التفكير في طريقة أسرع، وفي الوقت نفسه لا تعرِّض المنزل للهدم؛ لأنهم كلما توغَّلوا أصبح لزامًا بذلُ جهد أعنف لكسر الكتلة الجليدية المتماسكة. وخطر على بال بينيلون أن يستخدم الموقد في إذابة الجليد في الاتجاه المراد، وكانت هذه الطريقة خَطِرة؛ لأنه إذا طال حبسهم فسوف ينفد الكحول الذي يحتاجون إليه لإعداد الوجبات ولا يملكون منه إلا قليلًا. ورغم ذلك، فقد رحَّب الجميع بالفكرة ووضعوها حيز التنفيذ. وفي البداية حفروا حفرة عمقها ثلاث أقدام وقطرها قدم واحدة لتحتوي الماء الناتج عن ذوبان الجليد، وكان من الجيد اتخاذهم هذا الاحتياط لأن الماء سرعان ما تساقط بفعل اللهب الذي كان بينيلون يحرِّكه أسفل كتلة الجليد. واتسعت الفتحة تدريجيًّا، إلا أن هذا العمل لم يتمكَّن من الاستمرار طويلًا؛ لأن الماء غطَّى ملابسهم وتسلَّل إلى أجزاء مختلفة من أجسادهم. واضطر بينيلون للتوقُّف بعد ربع ساعة وسحب الموقد لتجفيف نفسه، عندئذٍ حل ميزون محله، وعكف على المهمة بجهد.

وفي غضون ساعتين أصبح عمقُ الحفرة خمس أقدام، ورغم ذلك لم تنفذ أطراف العصي إلى الخارج.

قال جون كورنبوت: «من المستحيل أن يكون الثلج قد هطل بهذه الغزارة؛ لا بد أن الرياح جمعته عند هذا المكان بالتحديد. ربما كان يجدر بنا التفكير في الهروب من اتجاه آخَر.»

فردَّ بينيلون: «لا أعرف، لكن من أجل ألا نخذل الرفاق يجب أن نكمل ثقب الحائط في المكان الذي بدأنا فيه. فلا بد أننا سرعان ما سنجد منفذًا.»

فسأله القبطان: «ألن ينفذ منا الكحول؟»

«آمل ألا ينفذ. دعنا إذًا نستغنِ عن تناول القهوة والمشروبات الساخنة إذا اقتضى الأمر، إضافة إلى ذلك، هذا ليس أكثر ما يزعجني.»

«فما الذي يزعجك إذًا يا بينيلون؟»

«بدأ ضوء المصباح يخبو بسبب قلة الزيت، كما أن المؤن سرعان ما ستنفد. في النهاية الحمد لله على أي حال!»

وذهب بينيلون ليأخذ مكان أندريه فازلينج الذي كان يعمل بحماسة من أجل خلاصهم جميعًا.

فقال: «سآخذ مكانك يا سيد فازلينج، لكن أرجوك انتبه إلى أي علامة على سقوط المنزل كي يكون أمامنا متسعٌ من الوقت للحيلولة دون سقوطه.»

جاء وقت الراحة، وبعد أن جعل بينيلون الفتحة أكثر عمقًا بمقدار قدَمٍ، رقد بجوار رفاقه.

الفصل الحادي عشر

سحابة من الدخان

عندما أفاق البحَّارة في اليوم التالي وجدوا أنفسهم محاطين بالظلام الدامس؛ فأيقظ جون كورنبوت بينيلون وطلب منه علبة الثقاب التي أعطاه إياها. ونهض بينيلون ليشعل النار، لكنه عندما نهض ارتطم رأسه بالسقف الجليدي، وتملَّكه الفزع لأنه في المساء السابق كان ما زال باستطاعته الوقوف مستقيمًا دون الاصطدام بالسقف، وأدرك على ضوء الموقد ذي الأشعة الخافتة الموقَدة بالكحول أن السقف كان أكثر انخفاضًا عن السابق بمقدار قدَمٍ.

استأنف بينيلون العمل في استماتة.

وفي هذه اللحظة، لاحظت الفتاة الشابة على وجه بينيلون الذي كان ينعكس عليه ضوء الموقد أن اليأس والإصرار يتصارعان على ملامحه الجامدة على مَن ستكون له الغلبة، فذهبت إليه وأمسكت بيديه وضغطت عليهما برفق.

وقال: «لا يمكن أن تموت ماري بهذه الطريقة، يجب ألا تموت هكذا!»

أمسك بالموقد ووجهه نحو الفتحة الضيقة مرة أخرى، وغرس عصاه ولم يشعر بمقاومة. هل وصل إلى طبقات الجليد الناعمة؟ وسحب عصاه ونفذ شعاع من الضوء إلى داخل المنزل الجليدي!

فصاح: «تعالوا إلى هنا أيها أصدقاء!»

ودفع الثلج للخارج بيديه وقدميه، لكن السطح الخارجي لم يكن ذائبًا كما توقَّع؛ فمع شعاع الضوء دخل الغرفة بردٌ عنيف واستحوذ على كل شيء رطبٍ وجمَّده على الفور. ووسَّع بينيلون الفتحة بسيفه، وتمكَّن أخيرًا من تنفس الهواء الطلق، وجثا على ركبتيه حامدًا الرب، وسرعان ما انضمت إليه ماري وبقية الرفاق.

أضاء السماء قمرٌ رائع، لكن البرد كان قارسًا للغاية ولم يستطيعوا احتماله؛ فعادوا إلى معتزَلهم. لكن بينيلون نظر حوله أولًا فلم يجد اللسان في محله، ووجد أن الكوخ

أصبح الآن وسط حقل جليدي واسع. وفكَّر بينيلون في الذهاب إلى الزلَّاجة التي توجد بها المؤن، لكن الزلاجة قد اختفت أيضًا!

أجبره البرد على العودة، ولم يخبر أصدقاءه شيئًا؛ فقد كان من الضروري تجفيف ملابسهم قبل أي شيء، وفعلوا ذلك بالاستعانة بالموقد، ورفع الترمومتر في الهواء لحظةً فوجد أن الحرارة انخفضت إلى ثلاثين درجة تحت الصفر.

بعد ساعة قرَّر فازلينج وبينيلون المغامرة بالخروج، فلفَّا نفسيهما في ملابسهما التي كانت لا تزال مبتلة، وخرجا من الفتحة التي أصبحت جوانبها متحجرة كالصخر.

قال فازلينج مسترشدًا بالنجوم التي كانت تتألق تألقًا رائعًا: «لقد دُفعنا صوب الشمال الشرقي.»

فقال بينيلون: «لن يكون هذا سيئًا إذا دُفعت الزلاجة معنا.»

فصاح فازلينج: «أليست الزلاجة هنا؟ إذًا لقد ضعنا!»

أجابه بينيلون: «لنبحث عنها!»

طافا حول الكوخ، وهو كتلة يزيد ارتفاعها عن خمس عشرة قدمًا. لقد سقطت كمية ثلوج هائلة طوال فترة هبوب العاصفة، وجمعتها الرياح على المرتفع الوحيد الموجود في هذا الحقل الجليدي المستوي، ودفعت الرياح الكتلة كاملة وسط الجبال الجليدية المتكسرة مسافةً تزيد عن خمسة وعشرين ميلًا صوب الشمال الشرقي، ولقي السجناء مصير سجنهم الطافي. أما الزلَّاجة التي كانت مستندة إلى جبل جليدي آخَر فقد اتجهت ناحيةً أخرى؛ إذ لا يوجد أي أثر لها، ولا بد أن الكلاب قد هلكت وسط هذه العاصفة المخيفة.

شعر أندريه فازلينج وبينيلون باليأس يستحوذ عليهما، ولم يجرؤا على العودة إلى رفاقهما، ولم يجرؤا على إعلام رفقاء الشقاء بهذا الخبر المشئوم، وتسلَّقا الكتلة الجليدية المحفور بها الكوخ، ولم يريا سوى البياض الشاسع الذي يكتنفهما من كل الجهات. وكان البرد قد بدأ يجمد أطرافهما، وبدأت رطوبة الملابس تتحوَّل إلى قِطَع جليدية تتدلَّى حولهما.

بينما كان بينيلون يهم بالنزول نظر صوب أندريه، فرآه يحدِّق فجأة في اتجاه واحد، ثم ارتجف وشحب لونه.

فسأله: «ما الخطب يا فازلينج؟»

فقال الآخر: «لا شيء، دعنا ننزل ونحث القبطان على مغادرة هذه الأنحاء التي ما كان يجب أن نأتيها أبدًا، لنغادر على الفور!»

وبدلًا من إطاعة فازلينج صعد بينيلون لأعلى مرة أخرى، وألقى نظرة على الاتجاه الذي لفت انتباه نائب الربان، وظهر عليه رد فعل مختلف تمامًا؛ إذ أطلق صيحة فرح وقال:

«شكرًا للرب!»

كان دخان خفيف يتصاعد في الشمال الشرقي، ولم يكن يوجد أدنى احتمال لأن يكون هذا سرابًا؛ كان ذلك دليلًا على وجود البشر. ووصلت صيحات الفرح التي أطلقها بينيلون إلى البقية بالأسفل، واستطاعوا جميعًا بأعينهم أن يقتنعوا بأنه ليس واهمًا.

ودون تفكيرٍ في نقص المؤن أو شدة البرودة، ارتدَوا القلنسوات وتقدموا من فورهم صوب البقعة التي كان يتصاعد منها الدخان في الشمال الشرقي. كان من الواضح أنها على بُعد خمسة أو ستة أميال، وكان من الصعب للغاية سلوك الاتجاه الصحيح بالضبط. واختفى الدخان ولم يَعُد يوجد أي قمة مرتفعة يسترشدون بها؛ فالحقل الجليدي كان مستوًى واحدًا. ورغم ذلك، كان من المهم عدم الانحراف عن المسار المستقيم.

قال جون كورنبوت: «نظرًا لأننا لا نستطيع الاسترشاد بالمعالم البعيدة، يجب أن نستخدم هذه الطريقة؛ سيسير بينيلون في المقدمة، وخلْفَه فازلينج بعشرين خطوة، وسأسير خلف فازلينج بعشرين خطوة، وعندها سأعرف إن كان بينيلون قد انحرف عن الخط المستقيم أم لا.»

واستمروا على هذا المنوال نصف ساعة حتى توقَّف بينيلون فجأة وأنصت، وأسرعت الجماعة للحاق به.

سألهم: «هل سمعتم شيئًا؟»

فأجاب ميزون: «لا شيء.»

قال بينيلون: «هذا غريب؛ بدا لي أنني سمعت صيحات من هذا الاتجاه.»

فأجابت ماري: «صيحات؟ ربما أصبحنا إذًا على مقربة من مقصدنا.»

فقال أندريه فازلينج: «هذا غير منطقي؛ في هذه الأنحاء والمناطق الباردة من الممكن سماع الأصوات من مسافة بعيدة للغاية.»

قال جون كورنبوت: «مهما يكن، دعونا نتقدم للأمام وإلا فسوف نتجمد.»

فصاح بينيلون: «كلا! استمعوا!»

سمعوا أصواتًا ضعيفة، لكن يمكن إدراكها رغم ذلك، وبدت كصيحات استغاثة، وكُررت مرتين، وبدت كصيحات طلب النجدة. ثم أطبق الصمت مرة أخرى.

قال بينيلون: «لم أكن مخطئًا، تقدموا للأمام!»

وبدأ يجري في الاتجاه الذي صدرت منه الصيحات، واستمر على هذه الحال مسافة ميلين إلى أن رأى، لدهشته، رجلًا ممددًا على الجليد، فتوجَّه إليه ورفعه، ثم رفع ذراعيه إلى السماء في يأس.

ركض أندريه فازلينج الذي كان يتبعه عن كثب مع بقية البحَّارة وصاح:

«إنه واحد من المفقودين! إنه البحَّار كورتواه!»

أجاب بينيلون: «إنه ميت! لقد تجمَّد حتى الموت!»

اتجه جون كورنبوت وماري إلى جوار الجثة التي كانت قد تصلَّبت بفعل الجليد. وكسا اليأس وجوه الجميع؛ فلقد كان الرجل الميت أحد رفاق لويس كورنبوت!

صاح بينيلون: «إلى الأمام!»

أمضوا نصف ساعة في صمت تام، ورأوا مرتفعًا بدا أرضًا، دون شك.

فقال جون كورنبوت: «إنه جزيرة شانون.»

وبعد ميل رأوا بوضوح دخانًا يتصاعد من كوخ جليدي مقفول بباب خشبي، فأخذوا يصيحون، وخرج رجلان من الكوخ، وأدرك بينيلون أن أحدهما بيير نوكيه.

فصاح: «بيير!»

ووقف بيير متسمرًا من الدهشة وغير واعٍ لما يدور حوله. ونظر أندريه فازلينج إلى رفيق بيير نوكيه بقلق ممزوج بفرح قاسٍ؛ إذ لم يكن لويس كورنبوت.

وقال بينيلون: «بيير! هذا أنا! وهؤلاء كل أصدقائك!»

عاد بيير نوكيه إلى رشده واحتضن رفيقه القديم.

وقال جون كورنبوت بنبرة ملؤها اليأس العميق: «ماذا عن ابني ... ماذا عن لويس؟»

الفصل الثاني عشر

العودة إلى السفينة

في هذه اللحظة خرج من الكوخ رجلٌ شبه ميت يجر نفسه على الجليد.

كان لويس كورنبوت.

«ابني!»

«حبيبي!»

نُطقَت هاتان الكلمتان في الوقت نفسه، وسقط لويس كورنبوت بين أحضان والده وماري اللذين سحباه نحو الكوخ، ومنحاه بعطفهما العنايةَ التي سرعان ما أعادته للحياة.

قال لويس: «أبي! ماري! لم أكن لأموت دون أن أراكما!»

فأجاب بينيلون: «لن تموت؛ كل أصدقائك بقربك.»

لا بد أن أندريه فازلينج كان يكره لويس كورنبوت بشدة لدرجة ألا يمد يده له، لكنه لم يفعل ذلك.

تملَّك الفرح بيير نوكيه، فراح يحتضن الجميع؛ بعد ذلك ألقى بعض الحطب في الموقد، وسرعان ما شعروا في الغرفة بالحرارة المريحة.

كان بالغرفة رجلان آخران لا يعرفهما جون كورنبوت أو بينيلون.

كانا جوكي وهيرمينج، البحَّارين الوحيدين اللذين بقيا من طاقم القارب النرويجي.

قال لويس: «لقد نجونا يا أصدقائي! أبي! ماري! لقد عرَّضتما نفسيكما لأخطار كثيرة!»

فردَّ الوالد: «لسنا بنادمين على ذلك يا لويس، سفينتك «جون أردي» راسية في الجليد بإحكام على بُعد ستين فرسخًا من هنا، وسوف ننضم إليها جميعًا.»

فقال بيير نوكيه: «عندما يعود كورتواه سيكون في غاية السعادة.»

تبع ذلك صمت حزين، وأخبر بينيلون بيير ولويس بموت رفيقهما من البرد.

وقال بينيلون: «أيها الأصدقاء، سوف ننتظر هنا إلى أن تقلَّ البرودة، ألديكم مؤن وحطب؟»

«نعم، وسوف نحرق ما تبقَّى من القارب فرويرن.»

لقد دُفع القارب فرويرن إلى مكان يبعد أربعين ميلًا عن المكان الذي اتخذه لويس كورنبوت لقضاء الشتوية، وانكسر هناك بفعل الجبال الجليدية التي طفت بسبب ذوبان الجليد، وحُمل المفقودون وجزء من حطام القمرة إلى السواحل الجنوبية لجزيرة شانون.

كان الناجون وقتها خمسة، هم: لويس كورنبوت، وكورتواه، وبيير نوكيه، وجوكي، وهيرمينج. أما بقية الطاقم النرويجي فقد غرق في لحظة غرق القارب الطويل.

أدرك لويس كورنبوت وهو محاصر في الجليد ما سوف يحدث، واتخذ كل التدابير اللازمة لقضاء الشتاء؛ لقد كان رجلًا مفعمًا بالحيوية والنشاط والشجاعة، لكن الطقس الرهيب غلبه رغم صلابته، وعندما وجده والده كان قد فقد الأمل في الحياة؛ فهو لم يكن مضطرًّا لمقاومة الطقس فحسب، بل أيضًا الطبع القبيح الذي يتسم به البحَّاران النرويجيان اللذان يدينان له بحياتهما؛ لقد كانا مثل الهمج لا يتأثران بالمشاعر الطبيعية. وعندما سنحت للويس فرصةُ الحديث مع بينيلون نصحه بأن يراقبهم عن كثب، وبالمثل حدَّثه بينيلون عن تصرفات أندريه فازلينج، ولم يستطِع لويس أن يصدِّق، لكن بينيلون أقنعه أنه منذ اختفائه حاول فازلينج دائمًا فعل كل ما يضمن الزواج من ماري.

قضوا بقية اليوم في الراحة والاستمتاع بلم الشمل. وصاد ميزون وبيير نوكيه بعض الطيور البحرية القريبة من الكوخ؛ إذ لم يكن من الحكمة الابتعاد عنه. رفعت هذه المؤن الطازجة والنار المجددة الروح المعنوية للمريض، وتحسَّن لويس كورنبوت بوضوح. وكانت تلك أول لحظة سعادة يشعر بها هؤلاء الشجعان، واحتفلوا بها بحماسة في ذلك الكوخ البائس على بُعد ستمائة فرسخ من بحر الشمال في حرارة بلغت ثلاثين درجة تحت الصفر!

استمرت درجة الحرارة على هذا النحو حتى أفول القمر، ولم يستطيعوا التفكير في الانطلاق إلا في السابع عشر من نوفمبر تقريبًا؛ أي بعد أسبوع من لقائهم. ولم يكن أمامهم سوى ضوء النجوم ليسترشدوا به، لكن البرد كان أقل قسوة مع سقوط بعض الثلوج.

وقبل أن يغادروا ذلك المكان حفروا قبرًا لدفن كورتواه المسكين. وكانت مراسم تشييعه حزينةً، وتأثر بها رفاقه بشدة. لقد كان أول واحد منهم لن يرى موطنه مرةً أخرى.

صنع ميزون من ألواح القمرة ما يشبه الزلَّاجة لحمل المؤن، وتناوب البحَّارة في جرها. وقاد جون كورنبوت القافلة عبْر الطرق التي عبروها من قبلُ، وكانوا ينصبون المعسكرات بحماسة بالغة عندما يحين وقت الراحة. وتمنى جون كورنبوت أن يجد مستودعات المؤن مرة أخرى؛ إذ يبدو من غير الممكن الاستغناء عنها بعدما انضم إلى الرحلة أربعة أشخاص آخرون؛ ولذلك كان حريصًا للغاية على ألا ينحرف عن الطريق الذي سلكوه في السابق.

ولحسن الحظ وجد زلَّاجته التي علقت بالقرب من اللسان عندما واجهوا الكثير من الأخطار. وكانت الكلاب قد هاجمت المؤن الموجودة على الزلَّاجة بعد أن التهمت ألجمتها لتُشبِع جوعها، وكان هذا ما أنقذ حياة الكلاب، وأرشدت هذه الكلاب الجماعة إلى الزلَّاجة التي كان لا يزال يوجد بها كمية كبيرة من المؤن. واستأنفت الجماعة الصغيرة مسيرتها صوب الخليج، وربطوا الكلاب في الزلاجة، ولم يحدث أي شيء مثير في طريق العودة.

لُوحظ أن أوبيك وأندريه فازلينج والبحَّارين النرويجيين كانوا منعزلين، ولم يختلطوا مع الآخرين، لكنهم كانوا مراقَبين عن كثب دون علمهم؛ فبذرة الشقاق تلك أثارت مخاوف لويس كورنبوت وبينيلون أكثر من مرة.

وفي حوالي السابع من ديسمبر؛ أي بعد عشرين يومًا من العثور على المفقودين، رأوا الخليج الذي رست عنده السفينة «جون أردي». وأثار دهشتهم رؤية السفينة تعلو الكتل الجليدية بمقدار أربع ياردات، وتقدَّموا مسرعين قلقين بشدة على رفاقهم، واستقبلهم جيرفيك وتوركيت وجرادلان بصيحات الفرح؛ لقد كانوا جميعًا بصحة جيدة على الرغم من تعرُّضهم لأخطار جسيمة.

كانت العاصفة ذات أثر بالغ في كل البحر القطبي، وانكسر الجليد كتلًا متناثرة ارتطم بعضها ببعض، واستحوذت على قاع البحر الذي رست عليه السفينة. ومع أن وزنها النوعي يجعلها تغوص تحت الماء، فإنها اكتسبت قوة هائلة وارتفعت السفينة فجأة فوق البحر.

قضوا اللحظات الأولى مغمورين بالسعادة النابعة من العودة الآمنة، وابتهجت فرقة المستكشفين عندما وجدوا كل شيء في حالة جيدة، وطمأنهم ذلك بأن الطقس سيكون محتملًا حتى إن كان قاسيًا. ولم تتضرر السفينة من جرَّاء صعودها المفاجئ، وكانت في حالة جيدة. وعندما يأتي موسم ذوبان الجليد لن يكون عليهم سوى إنزالها على سطحٍ مائلٍ كي تُبحِر من جديد في البحر الذي عاد مفتوحًا.

لكنَّ خبرًا سيئًا رسم الحزن على وجه جون كورنبوت ورفاقه؛ فأثناء العاصفة الرهيبة انهار المخزن الجليدي الموجود على الساحل، وتناثرت المؤن التي كان يضمها،

ولم يستطيعوا إنقاذ جزء منها. وعندما علم جون ولويس كورنبوت بذلك، زارا مخزن السفينة والمطبخ ليعرفا الكمية المتبقية من المؤن.

ونظرًا لأن موسم ذوبان الجليد لن يأتي قبل مايو، فإن السفينة لا تستطيع مغادرة الخليج قبل هذه الفترة؛ ولذلك كان أمامهم قضاء خمسة أشهر من الشتاء قبل أن يتمكنوا من العبور وسط الجليد، وخلال هذه الفترة كان لا بد من توفير الطعام لأربعة عشر شخصًا. وبعد أن أجرى جون كورنبوت حساباته وجد أنه يمكن أن يبقيهم جميعهم على قيد الحياة حتى موعد المغادرة على أقصى تقدير من خلال تقديم نصف حصص الوجبات لكلٍّ منهم. وأصبح الصيد ضروريًّا لتأمين الطعام بكمية أكبر.

وخوفًا من نفاد المؤن قرَّروا عدم وضعها على الأرض مرةً أخرى؛ فوضعوا كل المؤن على متن السفينة، ووزَّعوا أَسِرَّة للمستجدين في المهجع العام. وكان توركيت وجيرفيك وجرادلان قد حفروا أثناء غياب البقية مجموعةً من السلالم على الجليد لتُمكِّنهم من الوصول إلى ظهر السفينة بسهولة.

الفصل الثالث عشر

الغريمان

كوَّن أندريه فازلينج صداقةً مع البحَّارَين النرويجيَّين، وأصبح أوبيك جزءًا من جماعتهم أيضًا، ونأى بجانبه معلنًا استياءه من كل الإجراءات الجديدة، لكن لويس كورنبوت الذي نقل إليه والده قيادة السفينة وأصبح مرة أخرى رئيسًا على متنها، لم يُنصت لأي اعتراض من هؤلاء الأربعة، وعلى الرغم من أن ماري نصحته باتباع اللين فقد أعلن أنه لا بد من طاعته في كل الأمور.

رغم ذلك، نجح البحَّاران النرويجيان بعد يومين في الاستحواذ على صندوق من اللحم المملَّح. وأمرهما لويس بأن يعيدا الصندوق إليه في الحال، لكن أوبيك أخذ صفَّهم وأعلن أندريه فازلينج أنه لم يَعُد ممكنًا فرضُ الاحتياطات الغذائية بعد الآن.

كان من غير المجدي محاولةُ تبصير هؤلاء الرجال بأن هذه الإجراءات كانت للصالح العام؛ فقد كانوا على علم بذلك، وكانوا يبحثون فقط عن ذريعة للتمرُّد.

تقدَّم بينيلون صوب البحَّارَين النرويجيَّين اللذين أشهرا سيفيهما القصيرين، لكنه نجح بمعاونة ميزون وتوركيت في خطف الأسلحة من أيديهما، واستعاد اللحم المملَّح. ولم يتدخل أندريه فازلينج وأوبيك عندما رأيا أن الأمور لا تسير في صالحهما. إلا أن لويس كورنبوت انتحى بنائب الربان جانبًا وقال له:

«أندريه فازلينج أنت خسيس! أنا على علم بتصرفاتك، وأعرف ما تهدف إليه، لكنني مسئول عن سلامة الطاقم كله؛ ولذلك إذا فكَّر أيٌّ منكم في التآمر على الطاقم وتدميره فسوف أطعنه بيدي!»

فأجاب نائب الربان: «لويس كورنبوت، إذا كان مسموحًا لك بالتصرف كرئيس فعليك أن تتذكَّر أنه لا مكان للطاعة التامة في هذا المكان؛ فهنا القوي وحده مَن يضع القانون.»

ورغم أن ماري لم تهتز أمام أخطار البِحَار القطبية فقد روَّعتها هذه الكراهية التي كانت سببًا فيها، وما كادت تُطمئنها قوة القبطان.

رغم إعلان هذه الحرب، فقد تناولوا الوجبات معًا، وفي الساعات نفسها، وأمدَّهم الصيد بلحم الترمجان والأرانب البرية، لكن هذه الموارد الغذائية سرعان ما ستشحُّ مع اقتراب الطقس الشديد البرودة. وبدأ هذا مع حلول الانقلاب الشتوي في الثاني والعشرين من ديسمبر، وسجَّل الترمومتر في ذلك اليوم خمسًا وثلاثين درجة تحت الصفر. شعر الرجال بآلام في الأذن والأنف والأطراف، وأصيبوا بخَدَر خَطِرٍ مصحوب بصداع، وأصبح التنفُّس أكثر صعوبة.

في هذه الحال لم يَعُد لديهم الشجاعة اللازمة للخروج للصيد أو لممارسة التمارين. وظلوا مقرفصين حول الموقد الذي لم يمنحهم إلا نذرًا قليلًا من الحرارة؛ وكانوا عندما يبتعدون عنه يشعرون أن الدم قد تجمَّد في عروقهم فجأة.

تدهورت صحة جون كورنبوت بشدة ولم يَعُد قادرًا على مغادرة مهجعه، وظهرت عليه أعراض الإسقربوط، وسرعان ما غطَّت البقع البيضاء ساقيه. أما ماري فقد كانت في حالة جيدة، وشغلت نفسها بتمريض المرضى بحماسة الراهبات اللائي يقمن بالأعمال الخيرية، وشكرها الرفاق الصادقون من أعماق قلوبهم.

كان الأول من يناير يومًا من أكثر أيام الشتاء كآبة؛ فقد كانت الرياح عاتية والبرد لا يُحتمل، ولم يستطيعوا الخروج دون التعرُّض لخطر التجمد، وأكثرهم شجاعةً كان راضيًا بالاقتصار على التمشِّي على ظهر المركب مستظِلًّا بالخيمة. ولم يغادر جون كورنبوت وجيرفيك وجرادلان الفِراش. أما البحَّاران النرويجيان وأندريه فازلينج فكانت صحتهم جيدة، وكانوا يرمقون رفاقهم بنظرات قاسية وهم يرون تدهور صحتهم.

اصطحب لويس كورنبوت بينيلون إلى سطح السفينة، وسأله عن كمية الوقود المتبقية.

فأجاب بينيلون: «لقد نفد الفحم منذ وقت طويل وأوشكنا على حرق آخرِ ما تبقَّى لنا من حطب.»

فقال لويس: «إذا لم نستطع تجنُّب البرد فسوف نهلك.»

فقال بينيلون: «ما زال أمامنا طريقة؛ ألا وهي أن نحرق ما نستطيع حرقه من السفينة؛ أي بداية من السور المحيط بسطح السفينة وحتى مستوى التقائها بالماء، ويمكننا إذا اقتضى الأمر أن نحرق السفينة بالكامل، وأن نبني قاربًا صغيرًا.»

فردَّ لويس قائلًا: «هذه وسيلة متطرفة، وستحتاج من الرجال تكريس وقتهم بالكامل وهم في كامل صحتهم.» وأردف بصوت خفيض: «إن قوتنا تتضاءل، بينما تبدو قوة الأعداء في ازدياد، وهذا غريب!»

فقال بينيلون: «حقًّا، وإن لم نأخذ حذرنا ونراقبهم ليلًا ونهارًا فإنني لا أعلم ماذا سيحُلُّ بنا.»

فأجاب لويس: «لنأخذ البلطات ونقطع الخشب!»

ورغم البرودة صعدوا إلى سور السفينة الأمامي، وقطعوا الخشب الذي لم يكن ضروريًّا للسفينة على نحو لا يمكن الاستغناء عنه، ثم عادوا بالحطب الجديد، وأشعلوا النار من جديد، وعُيِّن أحدهم لمراقبتها كي لا تخمد.

في هذه الأثناء سرعان ما شعر لويس كورنبوت وأصدقاؤه بالإنهاك، ولم يستطيعوا مشاركة تفاصيل الحياة المشتركة مع أعدائهم؛ ولما كانوا مثقلين بكل الأعباء المعيشية، فقد أُنهكت قواهم سريعًا. وظهرت أعراض الإسقربوط على جون كورنبوت الذي عانى ألمًا لا يُحتمل، وظهرت الأعراض نفسها على جيرفيك وجرادلان، ولولا عصير الليمون الذي كان يُقدَّم لهم بكميات وافرة لكانوا استسلموا للمرض سريعًا، ولم يضنُّوا بهذا العلاج في تخفيف آلامهم.

إلا أنه في الخامس عشر من يناير عندما نزل لويس كورنبوت إلى المطبخ ليحصل على بعض الليمون، أصابته الدهشة عندما اكتشف أن براميل الليمون قد اختفت، فهرع إلى بينيلون وأخبره بهذه الكارثة؛ لقد حدثت سرقة ومن السهل معرفة فاعلها. وعندها فهِم لويس كورنبوت لماذا ظلت صحة الأعداء بهذه الحالة الجيدة! ولم يَعُد أصدقاء لويس كورنبوت يمتلكون القوة الكافية لاسترجاع الليمون على الرغم من اعتماد حياته وحياتهم على هذه الثمرة، وتملَّكت الكآبة واليأس لويس لأول مرة.

الفصل الرابع عشر

الكرب

في العشرين من يناير لم يكن معظم الطاقم قادرًا على مغادرة الفراش، وكان لكلٍّ منهم سترة من جلد الجاموس تقيه البرد إلى جانب الأغطية الصوفية، وإذا أخرج أحدهم ذراعيه من ملابسه سرعان ما يشعر بألم يجبره على تغطيتهما سريعًا مرة أخرى.

في هذه الأثناء، بمجرد أن أشعل لويس الموقد ترك بينيلون وميزون وأندريه فازلينج الفِراش وجلسوا حوله، وأعد بينيلون بعض القهوة المغلية التي منحتهم بعض القوة، بالإضافة إلى ماري التي انضمت إليهم في احتساء القهوة.

دنا لويس كورنبوت من فراش والده، وكان العجوز راقدًا شبه عاجز عن الحركة، وكانت أطرافه واهنة من المرض، وهمس بكلمات غير مترابطة أدخلت الحزن إلى قلب ابنه.

فقال: «أنا أحتضر يا لويس. آه كم أعاني! أنقذني!»

فاتخذ لويس قرارًا حاسمًا، وذهب إلى نائب الربان، وسيطر على نفسه بصعوبة وقال:

«أتعرف أين الليمون يا فازلينج؟»

فأجاب نائب الربان دون أن يهتز له جفن: «أعتقد أنه في المطبخ.»

«أنت تعلم أنه ليس هناك لأنك سرقته!»

«أنت القائد يا لويس كورنبوت ويمكنك أن تقول وتفعل أي شيء.»

«أستعطفك يا أندريه فازلينج، والدي يموت! وبإمكانك أن تنقذه، أجب!»

قال أندريه فازلينج: «ليس لدي ما أجيب به.»

فصاح بينيلون: «أيها الخسيس!» وانقضَّ على نائب الربان حاملًا سيفه في يده.

فتراجع فازلينج وهو يصيح: «النجدة أيها الأصدقاء!»

هرع أوبيك والبحَّاران النرويجيان من الفراش ووقفوا خلفه، واستعد توركيت وبينيلون ولويس للدفاع عن أنفسهم، وهبَّ بيير نوكيه وجرادلان رغم شدة التعب لمساندتهم.

وقال فازلينج: «ما زلتم أقوى من أن نواجهكم، إننا لا نريد القتال بسبب أمر غير مؤكد.»

كان البحَّارة أضعف من أن يتجرءوا على مهاجمة المتمردين الأربعة؛ لأنهم إذا فشلوا فسوف يكون مصيرهم الهلاك.

وقال لويس بنبرة حزينة: «أندريه فازلينج! إذا مات أبي فستكون أنت مَن قتله، وسوف أقتلك مثل الكلب!»

ذهب فازلينج وحلفاؤه إلى الجانب الآخر من القمرة، ولم يجيبوا.

بعد ذلك كان من الضروري الحصول على مخزون جديد من الحطب، وعلى الرغم من البرودة صعد لويس إلى سطح السفينة وبدأ يقطع جزءًا من سورها، لكنه اضطر إلى العودة في غضون ربع ساعة؛ لأنه كان معرَّضًا للسقوط بسبب شدة الهواء القارس البرودة، وأثناء سيره ألقى نظرة على الترمومتر الذي كان بالخارج فوجد أن الزئبق قد تجمَّد؛ لقد تخطت البرودة إذًا اثنتين وأربعين درجة تحت الصفر، وكان الطقس جافًّا والرياح تهُبُّ من الشمال.

في السادس والعشرين من يناير تحوَّلت الرياح إلى شمالية شرقية، ووقف الترمومتر الموجود بالخارج عند الدرجة الخامسة والثلاثين. كان جون كورنبوت يتألم، وبحث ابنه سدًى عن علاج له ليخفف به ألمه، إلا أنه ذات يوم هاجم فازلينج فجأة ونجح في أن ينتزع منه ليمونة كان على وشْك أن يتناولها.

لم يحاول فازلينج استرجاعها، وبدا أنه ينتظر فرصةً لينفِّذ فيها خططه الشريرة.

أراح عصيرُ الليمون العجوزَ كورنبوت بعض الشيء، لكنه كان من الضروري استكمال العلاج. وجثت ماري على ركبتيها تتوسَّل إلى فازلينج ليعطيهم بعض الليمون، لكنه لم يُجب، وسرعان ما سمع بينيلون ذلك الحقير يقول لشركائه:

«البحَّار العجوز يحتضر، وجيرفيك وجرادلان ليسا أفضل حالًا منه. أما الآخرون فيخسرون قوَّتهم يومًا بعد يوم؛ لقد اقترب الوقت الذي ستصبح فيه أرواحهم مِلكًا لنا!»

وهنا قرَّر لويس كورنبوت ورفاقه ألا ينتظروا، وأن يستفيدوا من القوة القليلة التي لا تزال لديهم، وأن يقتلوا هؤلاء الحقراء كي لا يُقتلوا على أيديهم، وقرَّروا أن ينفِّذوا في الليلة التالية.

ارتفعت الحرارة قليلًا، فجازف لويس كورنبوت بالخروج حاملًا مسدسه بحثًا عن فريسة.

سار مسافة ثلاثة أميال بعيدًا عن السفينة، وكان في الغالب يسير إلى أبعد مما قصد بسبب خداع السراب وانكسار الضوء، وكان هذا التصرُّف يفتقر إلى الحكمة؛ إذ كان ثَمة آثارٌ للحيوانات المفترِسة واضحة على الأرض؛ ورغم ذلك، لم يرغب في العودة دون لحمٍ طازج، ومضى في طريقه، لكنَّه شعر بإحساس غريب أدار رأسه؛ كان ما انتابه على الأحرى هو ما يُطلق عليه «دُوار الجليد الأبيض».

إن انعكاس التلال والحقول الجليدية أثَّرت عليه من رأسه إلى أخمص قدميه، وبدا له أن هذا اللون المسبب للدوار قد أثَّر عليه وسبَّب له غثيانًا لا يُقاوَم، وأُصيبت عيناه وأصبحت رؤيته مشوشة، وظن أن هذا الوهج سوف يقوده إلى الجنون. ودون أن يفهم هذه الظاهرة الرهيبة فهمًا كاملًا مضى في طريقه، وسرعان ما أصاب ترمجانًا كان يطارده بحماسة. سقط الطائر بسرعة، ولكي يصل إليه لويس، قفز من فوق كتلة جليدية وسقط سقطة قوية؛ إذ كانت القفزة من مسافة عشر أقدام على الأقل، وجعله انكسار الضوء يعتقد أنها لا تزيد عن قدمين فقط. ثم تمكَّن منه الدوار، وبدأ يطلب المساعدة دون أن يدري ما السبب رغم أنه لم يُصَب من أثر السقطة. وبدأ البرد يتمكَّن منه، ونهض متألمًا بدافع غريزة حب البقاء.

فجأةً شم رائحة دهن مغلي دون أن يتمكَّن من معرفة السبب. ونظرًا لأن السفينة كانت بينه وبين الرياح اعتقد أن هذه الرائحة منبعثة منها، ولم يستطِع أن يفكِّر في السبب الذي جعلهم يطهون الدهن نظرًا لخطورة هذا الفعل الذي من المحتمل أن يجذب الدببة القطبية.

عاد لويس في اتجاه السفينة مستغرقًا في أفكارٍ سرعان ما أصابت عقله المشوش بالذعر، وتخيَّل أن كتلًا عملاقة تتحرك في الأفق، وتساءل إن كان ثمة زلزال جليدي آخرُ في الطريق. وحال بينه وبين السفينة العديد من هذه الكتل، وبدا أنها ترتفع عن جانبَي السفينة، وتوقَّف ليحدِّق فيها بمزيد من الانتباه، وأُصيب بالرعب عندما رأى قطيعًا من الدببة العملاقة.

لقد انجذبت هذه الحيوانات إلى رائحة الدهن التي أدهشت لويس، واحتمى خلف تل، وعَدَّها فوجدها ثلاثة تتسلَّق الكتلَ الجليدية التي رست عليها السفينة «جون أردي».

ولم يَبدُ له ما يجعله يفترض أن مَن بداخل السفينة على عِلم بهذا الخطر، واعتصر قلبَه ألمٌ رهيب؛ فكيف يمكن مقاومة هذه الأعداء المخيفة؟ هل سيتحد أندريه فازلينج

وحلفاؤه مع بقية مَن في السفينة لمواجهة الخطر المشترك؟ هل سيتمكَّن بينيلون والبقية الذين يتضورون جوعًا العاجزون عن الحركة بسبب البرد، من مقاومة هذه الحيوانات الرهيبة التي زادها الجوع، الذي لا يجد ما يسده، توحُّشًا؟ ألن يفاجئهم هذا الهجوم المباغت؟

جالت هذه الخواطر في ذهن لويس سريعًا. وكانت الدببة قد عبَرت الكتل الجليدية، وفي طريق الصعود لشن الهجوم على السفينة. عندئذٍ تمكَّن من مغادرة التل الذي كان يحتمي خلفه، واقترب متعلقًا بالجليد، وسرعان ما استطاع أن يرى هذه الحيوانات العملاقة تمزِّق الخيمة بمخالبها، وتقفز على سطح السفينة، وفكَّر في إطلاق النار من البندقية ليلفت نظر رفاقه، لكنهم إذا خرجوا دون أسلحة فسوف تمزِّقهم هذه الحيوانات إربًا بكل تأكيد، كما لم تظهر أي علامات بعدُ على أنهم مدرِكون للخطر الجديد المحدِق بهم.

الفصل الخامس عشر

الدببة البيضاء

بعد أن غادر لويس كورنبوت كان بينيلون قد أغلق بإحكامٍ باب القمرة الذي يُفتح عند أسفل السُّلم المؤدي إلى سطح السفينة. وعاد بينيلون إلى الموقد الذي أخذ على عاتقه مراقبته بعدما أوى رفاقُه إلى الفراش بحثًا عن بعض الدفء.

كانت الساعة السادسة مساء، وشرع بينيلون في إعداد العشاء؛ فنزل إلى المطبخ لإحضار بعض اللحم المملَّح الذي أراد نقعه في الماء المغلي، وعندما عاد وجد أندريه فازلينج قد أخذ مكانه أمام الموقد، وجلس يطهو بعض قطع الدهن في وعاء.

قال بينيلون بنبرة حادة: «لقد كنتُ هنا من قبلك، لماذا أخذت مكاني؟»

فأجاب فازلينج: «للسبب نفسه الذي أتيت من أجله؛ لأنني أريد أن أطهو عشائي.»

«سوف ترفعه عن النار على الفور، وإلا فسنرى ماذا يحدث!»

قال فازلينج: «لن نرى شيئًا، وسوف أطهو عشائي رغمًا عنك!»

صاح بينيلون: «إذًا لن تأكله.» واندفع نحو فازلينج الذي أشهر سيفه وصاح: «النجدةَ أيها النرويجيان! النجدة يا أوبيك!»

وفي لمح البصر ظهر هؤلاء مسلَّحين بالمسدسات والخناجر، ووقعت الكارثة.

ألقى بينيلون نفسه على فازلينج الذي أُوكلت إليه، بلا شك، مهمة قتاله وحده؛ لأن حلفاءه اندفعوا نحو الأَسِرَّة التي يرقد عليها ميزون وتوركيت ونوكيه. ووقع نوكيه المريض الذي لا حول له ولا قوة ضحيةً لوحشية هيرمينج. وانتزع النجار بلطةً ونهض من فراشه وهرع لمواجهة أوبيك. وتقاتل توركيت وجوكي النرويجي بشراسة. أما جيرفيك وجرادلان فمن شدة المعاناة لم يكونا على درايةٍ بما يحدث حولهما.

وسرعان ما تلقَّى نوكيه طعنة في جنبه، والتفت هيرمينج إلى بينيلون الذي كان يقاتل باستماتة. كان أندريه فازلينج قد أحاط جسمه بكلتا يديه.

في بداية القتال انقلب الوعاء على الموقد، وعبق الجو برائحة الدهن السائل على الفحم المشتعل. واستيقظت ماري وصاحت في يأس وهرعت إلى فراش العجوز جون كورنبوت.

وسرعان ما أدرك فازلينج الذي كان أقلَّ قوة من بينيلون أن بينيلون سوف يتغلَّب عليه. لقد كانا قريبين للغاية لدرجةٍ لا تسمح لهما باستخدام السلاح. ولما رأى نائبَ الربان هيرمينج صاح مناديًا إياه:

«النجدةَ يا هيرمينج!»

وصاح بينيلون بدوره: «النجدةَ يا ميزون!»

لكن ميزون كان يتدحرج على الأرض مقاتلًا أوبيك الذي كان يحاول طعنه بالسيف. ولم تكن بلطة النجار مفيدةً له بالقدر الكافي؛ لأنه لم يستطِع استخدامها، وتفادى الطعنات التي كان يوجهها له أوبيك بسيفه بصعوبة بالغة.

وفي هذه الأثناء سال الدم وسط التأوهات والصرخات، وطُرح توركيت أرضًا بعدما جرحه في كتفه جوكي؛ ذلك الرجل الشديد القوة، وحاول توركيت أن ينتزع المسدس المتدلي من حزام ذلك النرويجي لكن دون فائدة، وأطبق عليه الأخير كالكماشة فأصبح من المستحيل أن يتحرك.

عندما صاح فازلينج طالبًا المساعدة لأن بينيلون كان قد حصره عند الباب، اندفع هيرمينج لمساعدته. وعندما همَّ هيرمينج بطعن بينيلون البريتاني أسقطه بينيلون على الأرض بركلة قوية. استغل فازلينج الجهد الذي بذله بينيلون في ركل هيرمينج وأفلت ذراعه اليمنى، لكن الباب الذي كانا يضغطان عليه بكل ثقلهما انكسر فجأة وسقط فازلينج.

فجأة سمعوا زمجرة فظيعة، وظهر دبٌّ عملاق عند السُّلم، وكان فازلينج أول مَن رآه، وكان يبعد عنه بمسافة أربع أقدام تقريبًا. وفي اللحظة نفسها سمعوا صوت طلق ناري، وتراجع الدُّب إما بسبب الجرح أو بسبب الخوف، وما إن نهض فازلينج على قدميه حتى انطلق وراء الدب تاركًا بينيلون.

ثم أعاد بينيلون الباب إلى مكانه ونظر حوله، فوجد أن الأعداء قد شدوا وثاق ميزون وتوركيت، وألقَوهما في أحد الأركان، وكان كلاهما يحاول جاهدًا تحرير نفسه لكن بلا جدوى؛ فهبَّ بينيلون لمساعدتهما، لكن النرويجيَّين وأوبيك طرحاه أرضًا، ولم تُتِح له قواه الخائرة أن يقاوم الرجال الثلاثة الذين أمسكوا بخناقه ليجعلوه عاجزًا عن الحركة. وبعدها سمعوا صراخ نائب الربان، فهرعوا إلى سطح السفينة ظانِّين أنهم ملاقو لويس كورنبوت.

كان أندريه فازلينج يصارع دبًّا طعنه مرتين من قبلُ بسكينه، وكان الدُّب يضرب الهواء بمخلبَيْه الثقيلَيْن محاولًا الإمساك بفازلينج الذي كان يتراجع تدريجيًّا نحو السور، وبدا واضحًا أن مصيره الهلاك، وعندها سُمع صوت طلقة ثانية، وسقط الدُّب، ورفع فازلينج رأسه ورأى لويس كورنبوت على درجات السُّلم الحبلي للصاري الخلفي ممسكًا ببندقيته؛ لقد أصاب لويس الدُّب في قلبه فأرداه قتيلًا.

غلبت الكراهية العرفان في قلب فازلينج، لكن قبل أن يشفي كراهيته نظر حوله، فوجد رأس أوبيك قد شُجَّ بضربة من مخلب الدُّب، وطُرح أرضًا على سطح السفينة بلا حراك. وكان جوكي يحمل البلطة في يده ويتفادى في صعوبة ضربات الدُّب الثاني الذي قتل أوبيك للتوِّ. ورغم وجود جرحين بهذا الحيوان فإنه ظلَّ يقاتل بضراوة. وكان دبٌّ ثالث يشق طريقه إلى مقدمة السفينة، ورغم ذلك لم يُعِره فازلينج اهتمامًا، بل هبَّ لمساعدة جوكي وتبعه هيرمينج، لكن جوكي انسحق بين مخلبَي الدُّب الذي أطبقهما عليه، وعندما سقط الدُّب بفعل رصاصات الرجلين الآخرين لم يكن جوكي إلا جثة هامدة بين ذراعيه اللتين يكسوهما الفراء.

قال فازلينج في شراسة كئيبة: «نحن الآن اثنان فحسب، لكننا إذا متنا فلن نموت دون انتقام!»

أعاد هيرمينج تعبئة المسدس دون أن يجيب؛ إلا أنه كان يجب القضاء على الدُّب الثالث قبل أي شيء. ونظر فازلينج إلى الأمام لكنه لم يرَه، وعندما رفع عينيه وجده واقفًا على السور متعلقًا بالسلالم الحبلية محاولًا الوصول إلى لويس، فأنزل فازلينج بندقيته التي كان يصوبها نحو الدُّب، ولمعت عيناه بفرح شديد وقال:

«آه، أنت مدين لي بذلك الانتقام!»

لاذ لويس بأعلى الصاري. وأخذ الدُّب يصعد الصاري، وكان يبعد عن لويس بما لا يزيد عن ست أقدام عندما رفع الأخير بندقيته وصوَّبها نحو قلبه.

رفع فازلينج سلاحه ليصيب لويس في حالة سقوط الدب.

أطلق لويس النار، لكن يبدو أن الرصاصة لم تُصِب الدُّب لأنه قفز قفزة كبيرة للأعلى. واهتز الصاري بأكمله.

فصاح فازلينج فَرِحًا وقال:

«هيرمينج، اذهب وأحضر ماري! اذهب وأحضر خطيبتي!»

نزل هيرمينج سلالم القمرة.

في هذه الأثناء ألقى الوحش نفسه على لويس الذي كان يحاول الاحتماء بالجانب الآخر من الصاري، وعندما رفع الدُّب العملاق كفَّه ليهشم رأسه أمسك لويس أحد الحبال الخلفية لينزلق إلى سطح السفينة، لكنه لم يكن بمأمن من الخطر؛ إذ سمع بجوار أذنه دويَّ رصاصة عندما كان في منتصف الطريق إلى الأسفل؛ لقد أطلق عليه فازلينج رصاصة لكنها لم تُصِبه. والآن تواجه الخصمان في نزال بالسيوف.

كانت المعركة على وشْك الحسم. ومن أجل أن يُكمل فازلينج انتقامه، ولكي تشهد الفتاة الشابة موت حبيبها، حرم نفسه من مساعدة هيرمينج، وأصبح لا يسعه إلا الاعتماد على نفسه.

جذب لويس وفازلينج أحدهما الآخر من ياقته، وأمسك كلٌّ منهما الآخر بقبضة من حديد، وكان لا بد من هزيمة أحدهما. أخذا يتقاتلان بعنف، ولم يستطيعا تفادي إلا نصف الضربات؛ لذا سرعان ما سال الدم من كليهما. وحاول فازلينج أن يطوِّق عنق خصمه بذراعه ليطرحه أرضًا، إلا أن لويس منعه؛ لعلمه أن مَن يسقط أرضًا يصبح هو الخاسر، ونجح في الإمساك بذراعيه، لكنه أسقط سيفه في هذه الأثناء.

وقع على سمعه الآن صرخات مثيرة للشفقة، وكانت تلك صرخات ماري؛ إذ كان هيرمينج يحاول جرَّها لأعلى؛ فاستشاط لويس غضبًا، واستجمع قواه ليلوي خاصرة فازلينج، لكن في هذه اللحظة شعر الخصمان بأن هناك مَن يحتضنهما بقوة؛ لقد سقط الدُّب على الرجلين بعد أن نزل من فوق الصاري، وكان جسم الدُّب يُطبِق على فازلينج. وشعر لويس بمخالب الدُّب تخترق لحمه، وكان الدُّب يخنق كلا الرجلين.

فصاح نائب الربان: «النجدة! النجدة يا هيرمينج!»

وصاح لويس: «النجدةَ يا بينيلون!»

سمعا وقع خطوات على الدَّرج، وظهر بينيلون، وعبَّأ مسدسه وأفرغه في أذن الدُّب، فزمجر الدُّب، وجعله الألم يُرخي مخالبَه لحظةً عن لويس، وسقط لويس بلا حراك على الأرض من شدة التعب، بينما أطبق الدُّب مخالبه بشدة من فرط الألم وسقط أرضًا وجر معه فازلينج الشرير الذي انسحق جسمه تحت الدب.

هرع بينيلون لمساعدة لويس كورنبوت، ولم يكن مصابًا بإصابات خَطِرة تهدِّد حياته، لكنه انقطع عن التنفس لحظة فحسب.

وقال وهو يفتح عينيه: «ماري!»

فأجاب بينيلون: «أنقذتها! ها هو هيرمينج ملقًى مطعونًا بسكين في بطنه.»

«وماذا عن الدببة ...»

«ماتت؛ ماتت يا لويس مثل أعدائنا، لكن لولاها لقُضي علينا. في الحقيقة، لقد جاءت لنجدتنا، لنشكر السماء!»

ونزل لويس وبينيلون إلى القمرة، وألقت ماري بنفسها بين أذرعهم.

الفصل السادس عشر

الخاتمة

أُصيب هيرمينج إصابة قاتلة، وحمله ميزون وتوركيت اللذان نجحا في تحرير نفسَيهما إلى أحد المهاجع، وكان بالفعل في النزع الأخير من الموت، وشغل البحَّاران نفسيهما بنوكيه الذي لم يكن جُرْحه خَطِرًا لحسن الحظ.

إلا أن فاجعةً أكبر نزلت بلويس كورنبوت؛ فوالده لم يَعُد يُظهِر أي إشارات تدل على وجوده على قيد الحياة. هل مات قلقًا على ابنه الذي وقع في قبضة الأعداء؟ هل استسلم في ظل هذه الأحداث العصيبة؟ لم يتمكنوا من معرفة السبب. على أية حال، لقد رحل عن الحياة البحَّارُ العجوز المسكين الذي كسره المرض.

انتاب الحزن واليأس لويس وماري من جرَّاء هذه المصيبة غير المتوقعة، وجثيا بجوار الفِراش ينتحبان أثناء الصلاة على روح جون كورنبوت، وتركهما بينيلون وميزون وتوركيت وحدهما في القمرة، وذهبوا إلى سطح السفينة. حُملت أجساد الدببة الثلاثة إلى مقدمة السفينة، وقرَّر بينيلون الاحتفاظ بفرائها؛ فهي ذات فائدة كبيرة، لكنه لم يفكِّر لحظة في تناول لحومها، إضافة إلى ذلك، فإن عدد الأشخاص اللازم إطعامهم الآن قد انخفض كثيرًا. وسرعان ما انضمت جثة هيرمينج إلى جثث فازلينج وأوبيك وجوكي التي قد أُلقيت في حفرة حفروها على الساحل؛ لقد مات هذا النرويجي أثناء الليل دون توبة أو ندم، وهو يُرغي ويُزبد.

أصلح البحَّارة الثلاثة الخيمة التي أضحت تسمح بسقوط الثلج على سطح السفينة نظرًا لتمزُّقها من عدة مواضع، وازداد انخفاض درجة الحرارة، واستمرت على هذا النحو حتى عودة الشمس التي لم تظهر في الأفق إلا بحلول الثامن من يناير.

دُفن جون كورنبوت على الساحل؛ لقد ترك موطنه بحثًا عن ابنه ومات في هذا المكان الرهيب! وحفر البحَّارة قبره على تبَّة، ووضعوا عليه صليبًا خشبيًّا بسيطًا.

ومنذ ذلك اليوم مرَّ لويس كورنبوت ورفاقه بمِحَنٍ أخرى كثيرة، لكن الليمون الذي وجدوه أعاد إليهم صحتهم.

تمكَّن جيرفيك وجرادلان ونوكيه من النهوض من فراشهم بعد أسبوعين من هذه الأحداث الرهيبة، وتمكَّنوا من ممارسة بعض النشاط.

وسرعان ما أصبح صيد الطرائد أكثر سهولة وأصبحت ثماره أكثر وفرة؛ إذ عادت الطيور المائية بأعداد كبيرة. وكانوا في أغلب الأحيان يصطادون نوعًا من البط البري كان يمثل لهم طعامًا ممتازًا، ولم يأسف الصيادون إلا على خسارة الكلبين اللذين فُقدا في مهمة استطلاع حالة الحقول الجليدية على بُعد خمسة وعشرين ميلًا جهة الجنوب.

اتسم شهر فبراير بالعواصف العنيفة والأمطار الثلجية الغزيرة، وظلت درجة الحرارة المنخفضة عند خمس وعشرين درجة تحت الصفر، لكنهم لم يعانوا مقارنةً بالمحن السابقة. بالإضافة إلى ذلك، فإن رؤية الشمس ترتفع أكثر وأكثر في الأُفُق أدخلت البهجة في نفوسهم؛ إذ كانت مؤشرًا على نهاية معاناتهم. وأشفقت السماء عليهم؛ إذ حل الدفء في هذه السنة أبكر من المعتاد. وظهرت الغربان في مارس وأخذت تحوم حول السفينة. واصطاد لويس كورنبوت بعض طيور الكُركيِّ التي كانت تهيم في تلك المناطق النائية متجهة صوب الشمال. ورأوا أيضًا أسرابًا من الطيور البرية في الجنوب.

كانت عودة الطيور دليلًا على تراجع البرودة، لكن لم يكن من الآمن الاعتماد على ذلك؛ لأنه مع تغيُّر الرياح أو مع بزوغ القمر الجديد أو اكتمال القمر تنخفض الحرارة فجأة، ويضطر البحَّارة إلى اللجوء إلى الاحتياطات البالغة الحذر لحماية أنفسهم منها. لقد استخدموا السور كله، وكل الحواجز، وجزءًا كبيرًا من حجرة قيادة السفينة حطبًا. وقد حان الوقت الآن لانقضاء الشتاء. ولحسن الحظ فإن متوسط درجة الحرارة في مارس لم يتخطَّ ست عشرة درجة تحت الصفر. وشغلت ماري نفسها بإعداد ملابسَ جديدةٍ للفصل المقبل من السنة.

وبعد الاعتدال الربيعي، ظلت الشمس تلوح في الأفق باستمرار، وبدأت أشهر النهار الدائم الثمانية. وسرعان ما بدأ ضوء الشمس المستمر، والحرارة المتزايدة رغم ضعفها النسبي، يؤثِّران في الجليد.

كان من الضروري اتخاذ احتياطات هائلة عند إخراج السفينة من طبقة الجليد الشاهقة المحيطة بها؛ ولذلك دُعمت السفينة بإحكام، وبدا من الأفضل الانتظار حتى تكسُّر الجليد، لكن الكتلة السفلى التي كانت مرتكزة على طبقة من الماء الذي أضحى دافئًا

بالفعل انفصلت شيئًا فشيئًا، ونزلت معها السفينة تدريجيًّا. وفي وقت مبكر من أبريل كانت السفينة قد وصلت إلى مستواها الطبيعي.

جاء أبريل بوابل من الأمطار التي انتشرت أمواجًا فوق الحقل الجليدي مما عجَّل بتكسُّره على نحو أكبر. وارتفع الزئبق في الترمومتر مسجلًا عشر درجات تحت الصفر. وخلع بعض الرجال ملابسهم المصنوعة من جلد الفقمة، ولم يَعُد من الضروري إبقاء النار مشتعلة في الموقد ليلًا ونهارًا. أما مخزون الكحول الذي لم ينفد فاقتصر استخدامه على طهي الطعام.

وسرعان ما بدأ الجليد في التكسُّر بسرعة، وأصبح من الرعونة السير على الحقل الجليدي دون عصًا تختبر عُمقَ الممرَّات؛ فالشقوق ذات المسارات المتعرِّجة كانت في كل مكان. وسقط بعض البحَّارة في الماء ولم يمسسهم سوءٌ باستثناء الاستحمام في ماء شديد البرودة.

عادت الفقمات، وكانوا يصطادونها في أغلب الأحيان، وينتفعون بشحومها.

استعاد الطاقم صحته كاملة، واغتنموا الوقت في الصيد والتجهيز للمغادرة. كان لويس كورنبوت يفحص القنوات في أغلب الأوقات، وقرَّر بناءً على شكل الساحل الجنوبي أن يتخذ سبيلًا في ذلك الاتجاه. وكان تكسُّر الثلوج قد بدأ في كل مكان، وبدأ الثلج الطافي يتجه صوب أعالي البِحَار. وفي الخامس والعشرين من أبريل أصبحت السفينة في وضع الاستعداد، وأُخرجت الأشرعة من أغطيتها، ووُجد أنها محفوظة على نحو مثالي، وكان البحَّارة سعداء حقًّا برؤية الأشرعة ترفرف بفعل الرياح مرة أخرى. وتمايلت السفينة في الماء؛ إذ وصلت لخط الطفو الخاص بها، وعلى الرغم من أنها لم تمضِ قُدمًا بعدُ، فقد مكثت بهدوء وسلاسة في حالتها الطبيعية.

في مايو تسارع معدل ذوبان الجليد؛ فذاب الجليد الذي كان يغطي الساحل في كل مكان وكوَّن طينًا كثيفًا جعل الهبوط على الساحل شبه مستحيل، وأطلَّت على استحياء بعض نباتات الخلنج الصغيرة الوردية والبيضاء من فوق الجليد المتبقي، وبدت كما لو كانت تبتسم للحرارة القليلة التي تستقبلها. وأخيرًا ارتفع زئبق الترمومتر فوق الصفر.

على بُعد عشرين ميلًا كانت قِطَع الجليد المنفصلة تمامًا تطفو متجهة نحو المحيط الأطلنطي، وعلى الرغم من أن البحر حول السفينة لم يكن خاليًا تمامًا من الكتل الجليدية، فقد تفتحت قنواتٌ أراد لويس كورنبوت استغلالها.

في الحادي والعشرين من مايو، أبحر لويس أخيرًا من الخليج بعد زيارة وداعٍ لقبر والده. وغمرت الفرحة والحزن معًا قلوب البحَّارة الأوفياء؛ لأن المرء لا يغادر مكانًا دفن فيه صديقه دون أن يشعر بالحسرة. هبَّت الرياح من الشمال وساعدتهم على المغادرة. وكثيرًا ما اعترضت الضفاف الجليدية مسيرةَ السفينة، وكانوا يقطعونها بالمناشير، وكثيرًا ما واجهت السفينة الجبال الجليدية، وكان من الضروري تفجيرها بالبارود. وعلى مدار شهر كان الطريق محفوفًا بالأخطار التي جعلت السفينة على شفا الهلاك في بعض الأحيان، لكن أفراد الطاقم كانوا أشداء ومعتادين على هذه المِحَن الخَطِرة. وقام بينيلون وبيير نوكيه وتوركيت وفيديل ميزون بمهامَّ يقوم بها عشرة من البحَّارة، وكانت ابتسامات ماري تقطر بالعرفان لكلٍّ منهم.

وأخيرًا اجتازت السفينة «جون أردي» الجليدَ الموجود في نطاق جزيرة يان ماير. وفي الخامس والعشرين من يونيو تقريبًا قابلت سفنًا متجهة نحو الشمال لصيد الفقمة والحيتان. وفي ذلك الحين، كانت قد أبحرت من البحر القطبي منذ ما يقرب من شهر.

وفي السادس عشر من أغسطس أصبحت السفينة قبالة دنكيرك، وتلقَّت إشارة من مراقبي السواحل، واحتشد كل السكان عند المرفأ. وسرعان ما ارتمى بحارة السفينة في أحضان أصدقائهم، وصافح الكاهن العجوز لويس كورنبوت وماري بودٍّ أبويٍّ، وكان أول قداس ألقاه في اليوم التالي مخصصًا لطلب الراحة لروح جون كورنبوت، أما الثاني فكان لمباركة الحبيبين اللذين جمعت المحن بينهما منذ وقت طويل.

هنـــداوي